كأنّـــه نـــهار

أحمد الشريف: كأنه نـــهار - رواية

الحضارة للنشر

٧ شارع أبو السعود – الدقى ١٢٣١١ – القاهرة
تليفون ٧٦١٩٤٣٩ – فاكس ٧٦٠٥٨٩٨

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 761 94 39
(20-12) 316 48 67
Fax: (20-2) 760 58 98

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: مارس ٢٠٠٤

رقم الإيداع بدار الكتب: ٥٣٠٥ /٢٠٠٤

I.S.B.N.: 977-5429-32-3

لماذا أنا الآن تحت التلال الخضراء؟
إننى أضحك،
ومع هذا لا أحار جواباً،
إن نفسى الآن نقية تماماً،
إنها تنعم فى سماء أخرى،
والأرض ليست ملكاً لأحد،
وأشجار الخوخ تزهر والمياه تفيض وتفيض.

لى باى.

بداية الرحلة كانت قبيل شروق الشمس.

مديـــر مكتب السياحة قال لى، إن درجة الحرارة سترتفع وبـــرنامج الـــرحلة متخم والأجانب لن يحتملوا ارتفاع درجة الحـــرارة. صـــمتُ موافقـــاً على ما قال. كانت على شاطئ البحيرة ثلاثة مراكب، كى تقل الفوج السياحى إلى قرية ديميه السباع شمال بحيرة قارون بثلاثة كيلومترات.

فوانـــيس شـــحيحة الإضـــاءة، لا تـــزال تضئ، فى باطن المراكـــب. ذاكـــرتى ترجع بى إلى مئات السنوات، إلى ماض بعيد، ضارب فى القدم، طويل وممتع. ذات الرحلة، كان يقوم بها أجدادنا، ليحتفلوا بعيد ديونيسيوس الذى حل محل حتحور إلهـــة الجمـــال والفـــرح والحب. تشابه الطقوس فى العيدين يوحـــى بأنهمـــا اتحـــدا معاً خاصة بعد أن اقتربت الحضارة الفرعونية والإغريقية من بعضهما البعض.

كـــان الـــرجال فـــى هذا العيد يستعدون بتجهيز القوارب وأدوات الصيد. كانوا يصطادون فى طريقهم طيور الماء، ثم يســـقطون بمهـــارة فائقـــة، بعصا على شكل خطاف طويل، يقذفونهـــا إلى أعلى فترتد إليهم وبها الطيور المحلقة بعيداً عـــنهم. أمـــا الأوز والـــبط فكانوا يبسطون لها الشباك على المـــياه. والإنـــاث فى هذا العيد كن يرتدين الملابس الملونة

ويزيـــن أنفســـهن بالعقود والأقراط الذهبية وأكاليل الورود والزيتون.

أعادنى إلى زمنى وإلى الفوج السياحى، صوت الضربات الرتيـــبة لأحـــد المراكبية على جلد أرنب أو جدى، لا أعرف تحديداً، من وقت لآخر، كان يضرب بعصا قصيرة على الجلد المشـــدود بيـــن خشبتين فى قاع المركب. صوت الضربات أحدث تهيجاً لأسماك القاع، رأيتها تقفز على وجه المياه.

رأيـــت أكـــثر من سائح يلتقط الصور للأسماك التى تقفز والطـــيور التى تحلق فوقنا. اقتربت منى كريستين الألمانية وبـــدأت تســـألنى عـــن تاريخ المكان وأبرز معالمه وأجمل الأماكن فيه. أسئلتها بالعربية المكسرة والإنجليزية مع كلمات بالألمانـــية، الـــتى لا أفهمهـــا تخرج منها عندما لا تسعفها العربـــية والإنجلـــيزية: صـــورنى مع ده. أعطتنى الكاميرا والتصـــقت بزمـــيلى وجـــارى، رجـــب. صورتهما وخلفهما نورسان أبيضان، يحلقان.

كريستين ليست ضمن الفوج رسمياً. أوصتنى بها صديقتى فاتن وقالت إنها فى زيارة لمصر لمدة أيام وتريد أن تشاهد الأماكـــن الـــتى لم تزرها مع زوجها المصرى أو الذى كان زوجهـــا. همـــا علـــى وشك الانفصال. أخرجت علبة سجائر ماركة كيلوباترا مصرية الصنع، أشعلت واحدة وأعطت رجب

واحدة فوضعها خلف أذنه. ابتعدت حتى حافة القارب ونظرت إلــى الجزيرة الصغيرة: وصلنا. بعد أن نزلنا على الجزيرة، سرنا على الأقدام عشر دقائق حتى وصلنا إلى مشارف أطلال ســور ديمــيه الســباع. أظهــرت تصريح الزيارة وأعطيته للحراس والخفراء. أفسحوا لى الطريق وبدأت أتكلم وأشرح للفــوج تــاريخ المكان. توقفت أمام بقايا القدماء. حمامات بالرخام الأبيض، جزء من مسرح مدرج، ساحة السوق، آنية من الفخار، خزف مزخرف بحلية من اللون الأبيض ومرسوم علــيه بشــر وطــيور وغــزلان تركض بين أشجار وزهور اللوتس. شعرت أن العطور الزكية تنبعث رائحتها من المكان. نظــرتُ إلى أعضاء الفوج، فوجدتهم فى عالم آخر. المدهش لى تعليقهم على المكان والبحيرة ومساحات الخضرة بجملة واحدة: هذا المكان قطعة من الجنة.

- بيقولوا إيه؟

ســألنى رجب بعد صمته الطويل الذى أعقب صورته مع كريستين، يبدو أنها أعجبت به وبسمرته.

- بيقولوا المكان زى الجنة.
- يعنى شافوا الجنة قبل كده؟.

حاولت أن أشاكسه: إيه رأيك لو تتجوز واحدة منهم. : لا طبعاً. سألته عن سبب رفضه القاطع: عريانين وجسمهم كله

شايفه ومش حاسس بحاجة مفيش أحسن من نسوان بلدنا. وأشار لى بشكل خفى إلى الشعر الكثيف تحت أبط كريستين وعلى ذراعيها والزغب الأصفر المنتشر فى وجهها.

بـــدأت الشـــمس ترسل أشعتها بقوة. نبهت من معى إلى ضـــرورة العـــودة لشاطئ البر الثانى. بعد الوصول للشاطئ انطلقـــت بـــالفوج إلـــى الفندق القريب من البحيرة، للراحة وتـــناول الغداء. تركتهم أنا ورجب بعد أن أخبرتهم بضرورة أن يكونوا مستعدين فى الساعة السادسة، لنبدأ جولة جديدة.

* * *

رجـــل ذو لحـــية بيضاء كثيفة على رأسه عمامة خضراء وبيده إبريق صغير يسقى الناس منه. حواليه دائرة كبيرة من زائرى سوق القرية الأسبوعى. كل واحد منهم يقدم له كوباً بلاســـتيكياً أو زجاجـــياً؛ ليملأه. الرجل يضرب بيده على فم الإبـــريق فيـــنزل المـــاء فى الأكواب. لا يمكن أن يكون فى الإبريق كل هذا الماء. الناس تكبر وتهلل وتعطى للرجل كى يملأ لهم. يملأ ويعطى، والإبريق لا يفرغ منه الماء. بعد فترة فرش الرجل منديلاً كبيراً على الأرض: لا تعطونى ثمن الماء لكن أكرموا عابر سبيل. جمع الرجل نقوداً كثيرة.

- شفت المعجزة؟
- شفت يا سيدى.

استمررنا فى طريقنا حتى محطة السكة الحديد أو المنطقة التى كانت تحمل هذا الاسم. فالمحطة هدمت ورفعت القضبان ولــم يعد القطار يمر فى البلدة. لا أحد كان يتخيل ما حدث. المحطة أنشئت منذ بداية الاحتلال الإنجليزى لمصر. المحطة والقضبان والكنيسة والمقهى والبيت الخشبى الذى صور فيه فــيلم دعاء الكروان، جزء مهم فى حياتنا. كنا نلعب بالكرة على جانبى القضبان وفى وقت معين نتوقف عن اللعب؛ لأن القطـــار ســيمر. نلـــوح لأهلنا وأصدقائنا العائدين. من معه حلوى أو برتقال أو موز، كان يقذف بعضاً منها تجاهنا. أذكر المــرة الأخـــيرة التى ركبت فيها القطار. كنت قد تأخرت فى المدينة. رفضت النوم فى بيت أحد زملائى فى الكلية. الساعة كانت الواحدة شتاء. القطار الأخير وبه نفر قليل من الركاب نزلوا فى أقرب محطة. محطتى كانت أخر الخط. نظرت حولى ولم أجد أحداً فى عربتى. ضوء فضى ناعم تسلل من النافذة الزجاجــية، القمـــر بدراً. الصمت ورائحة الغيطان فى الليل ونقــيق الضـــفادع وعـــواء ذئب فى قلب الغيطان. شعرت بـــالخوف. هـــدأت ســـرعة القطار حتى وقف بفرملة قوية وصوت مكتوم. نزلت المحطة ولم أجد أحداً إلا الخفير.

- فيه حد غيرك؟
- لا.

- بيتك قريب؟
- بعيد فى أخر البلد.
- يا بنى خليك معايا لما النهار يشقشق الطريق وحش.

اقتنعـت بكلامه بعد أن نظرت إلى الطريق الطويل الممتد. جلسـنا نتسـامر وبجوارنـا نار مشتعلة وضع عليها براد الشـاى. غفـوت ونمـت ثـم استيقظت على صوت زقزقة العصـافير علـى أشجار المحطة. شكرت الرجل وأستاذنت بالرحيل، وقام هو الآخر كى يستعد لتسليم الوردية. وأنا فى طريقى للبيت وضباب الصباح يحجب الرؤية الواضحة، رأيت شـبحين يخـبان. اقـتربا منى فعرفتهما. مخلوف وخادمه، يسـرعان لـيلحقا بـأول قطار إلى المدينة. مخلوف الرجل الثرى، مولع بحضور جلسات المحاكم وفض المنازعات بين رجـال البلدة. الخصمان والصديقان اللدودان، إسحاق يونان وحـربى عـلام، لـم يجـدا أفضل منه، ليحل ما بينهما من مشـاكل، آخرها مشكلة البيت الذى بناه إسحاق لابنه جوار أرض حـربى. مخلوف وخادمه يذهبان إلى المدينة فى قطار السادسـة صباحاً؛ كى يجلسا معاً فى الكافتيريا المطلة على سواقى الهدير والشارع الرئيسى، ويحتسيان البيرة. مخلوف مدمن للبيرة، وبحكم العادة أصبح خادمه مثله. فى يوم لمح واحـد مـن الزبائـن الظرفاء هذا المنظر، مخلوف وخادمه

وأمامهما عدد كبير من زجاجات البيرة، وكان الخادم واضعاً رجلاً على رجل وحافى القدمين.

- يا أخى بتمن إزازة هات للمسكين ده جزمة!

مخلــوف وخادمه رجلان لا يهتمان كثيراً بتعليقات الناس على صداقتهما واهتماماتهما الغريبة.

- باقى نص ساعة على ميعادنا مع الفوج.

صوت رجب جذبنى من ذكرياتى البعيدة والقريبة وأعادنى إلى طريقنا. كنا قد وصلنا إلى بيت عبدالله أبو الحمد. أخبرناه برغبتنا أن يأتى معنا فى الجولة الثانية من الرحلة إلى قصر قارون وشلالات وادى الريان؛ لأنه على علاقة قربى وصداقة بالخفــراء هناك ويمكن أن يسهل لنا الأمور. وافق وانطلقنا صــوب الفندق ورجب يحكى له عن الرجل صاحب الإبريق الذى شاهدناه فى السوق.

* * *

هذه المرة انطلقت المراكب بنا جنوباً.

المسافة أكبر لكن مناطق وأماكن الجمال أكثر.

تكســرت حــدة أشعة الشمس وانتشرت كالحبال الحمراء على مياه البحيرة. قرص الشمس غاطس حتى المنتصف فى الأفــق البعيد. طيور البحيرة تطير حولنا وفوقنا فى أقواس. صــيادون صغار السن يفردون شباكهم. عندما ضاقت بيننا

المسافة، رأيتهم يحدقون فى الأجسام العارية المسترخية. لقد تخلصــت الفتـيات والنســاء معــنا من معظم ثيابهن. كتل أجســامهن الحمــراء تشكل مع أشعة شمس الغروب لوحة محيرة. نرى سحر البحيرة الذى خلب لب قارون وجعله يسير علـــى الشـــاطئ مرة، وعلى مركب فى البحيرة مرات ودفعه للبحث عن الذهب فى قاعها حتى ذاب وتلاشى هو وذهبه ولم يبق سوى جمال البحيرة وغموضها. عبدالله أبو الحمد اقترب مـــنى وأشـــار إلـــى المبنى الكبير الذى ظهر: قصر قارون وصــلنا. طبعاً لو شرحت له ألف مرة، أن المبنى ليس قصر قـــارون بـــل معبد ديونيسيوس، لن يصدقنى. ولا داعى لأن يصـــدقنى. الأفضل أن أترك له عالمه وتاريخه وحكاياته كما هـــى. أخذت بيده وأنزلته وجعلت رجب ومن معه يساعدون أعضـــاء الفوج على النزول من المراكب ومشاهدة المكان. المعـــبد فـــى مكان مرتفع جاف، محاط بأرض فضاء، بعدها مســـاحات شاســـعة من أشجار الزيتون، ثم شريط طويل من مـــياه البحـــيرة، بعد ذلك الصحراء التى تطوق المكان. على واجهـــات أبـــواب المعـــبد ونوافـــذه رسومات يمتزج فيها الفرعونى بالإغريقى. فى الداخل كانت مساقط الضوء توضح الرســـومات على الجدران. أبقار، طيور، خضراوات، فواكه وزهـــور، جعة ونبيذ وعطور. إنها القرابين التى كانت تقدم

أثـــناء الشعائر. على سطح المعبد، رأيت بقايا آنية وسكاكين وأصـــدافاً بحـــرية وعظامـــاً لحيوانات متحجرة، وكثيراً من الأخشاب. كان المحتفلون بعد أن يفرغوا من تأدية الطقوس، يتوغلون فى المكان؛ بحثاً عن الغزلان والثيران البرية. ليلاً، يشـــعلون المشـــاعل ويجلســـون فـــى دوائر، بعضهم يغنى وبعضهم يخرج القرب المليئة بالنبيذ ويشرعون فى الشراب والرقص والغناء حتى شروق شمس اليوم الجديد.

أخبرت الفوج بالاستعداد للعودة. كريستين قالت لى، إنها تـــريد شـــراء بيـــت صغير متاخم للمعبد. وتريد داخل البيت الصـــغير غـــرفة نوم صغيرة وصالة صغيرة وحماماً صغيراً وشـــرفة كبـــيرة تـــرى من خلالها المعبد والبحيرة وأشجار الزيـــتون والصـــحراء. ابتسمتُ وقلت لها: لقد نسيتِ شيئاً مهماً.

- ما هو يا صديقى؟
- رجلاً صغيراً.
- لا لا لا.

فـــى طريق العودة استبدلنا بالمراكب السيارات؛ خوفاً من إرهاق المراكبيه وخوفاً من الوصول متأخرين.

* * *

الليل صديق إسحاق يونان.

عـــندما يأتى الليل لا يشعر أنه فقد بصره. نقيق الضفادع يســـمعه آتـــياً من الترعة الصغيرة، تخترق بيته إلى البحر الكبـــير. يبتسم عندما يسمع الناس يتحدثون عن كنز أسفل البيـــت وعـــن الـــنفق الـــذى يـــبدأ أسفل بيته وينتهى عند الإسكندرية.

هذا البيت القديم، بناه جده وجعل له أكثر من باب، اشترك مع البنائين فى تصميمه. يمكن الوصول له من ثلاث أو أربع جهـــات. مد يده يتحسس زجاجة العرقى، لا تزال باردة. لن يشـــرب مـــنها قـــبل مجىء عبدالله أبو الحمد. رحلتهما معاً انتهـــت بالعجـــز. هـــو فقد بصره منذ سنوات وعبدالله منذ عشرين سنة منعه الأطباء الاقتراب من النساء.

لا يزال يذكر الليلة التى طرده فيها أبوه من البيت، ليلتها ذهـــب إلى عبدالله ومشيا معاً حتى غيط حربى علام. لم يكن هناك غير خفيره خليل. استقبلهم وأعد المكان. عند المغيب جاء حربى وبدأوا فى لعب الكوتشينه ولف سجائر الحشيش وشرب العرقى. فى نفس هذه الليلة عُثر على جثة امرأة فى الغيط المجاور لهم. من نشوتهم لم يشعروا بالجلبة والضجيج والحركة الشديدة والضباط والمخبرين، بل جلجلت ضحكاتهم

وعلت أصواتهم ولم يدروا بأنفسهم إلا فى صباح اليوم الثانى وهم جميعاً فى سجن المركز.

صوت خرخشة الأوراق اليابسة تحت أقدام عبدالله، جعله يبتسم للمرة الثانية. لمح عبدالله ابتسامة صديقه: خير شايفك مبسـوط. طلب منه أن يجلس ثم أعطاه زجاجة العرقى. بعد فـترة مـن الشرب المتواصل بلا كلام، شعرا بالنشوة. قام إسـحاق مرتكـزاً على عبدالله وتجولا معاً عبر حديقة البيت التى لا حدود لها. الأرض خلف البيت أرض إسحاق. النسائم الخفيفة تمر على وجهيهما وتداعب ملابسهما. عبدالله يرصد وجه صديقه الذى تجاوز السبعين. حتى الآن وبعد هذا العمر، لا يمكن أن يخمن ما يفكر فيه إسحاق. دائماً يبغته بمشاريع وآراء وألغاز لا يقدر على حلها. أحواض النعناع والياسمين البلدى، تنبعث منها رائحة زكية.

- يا سلام يا عبدالله لو الدنيا تبقى ليل على طول!

لم يرد، يدرك أن رده لن يجدى فكر فى تغيير الموضوع.

- أنت كنت بتبتسم ليه؟
- أفتكرت يوم دخولنا سجن المركز.
- آه.

ذلـك اليوم الذى غير مجرى حياة عبدالله أبو الحمد. كان معهـم فى السجن رجل سودانى معه كتاب ضخم وقديم جداً.

تحســس الكتاب وفتحه وقرأ منه سطوراً، أدهشته معانيها. توقــف طويلاً أمام الرسوم الغريبة والأشكال المختلفة للقمر والشمس والأرض وسائر الكواكب.

طلــب مــن الرجل أن يعطيه الكتاب فرفض. عندما شعر الــرجل برغبة عبدالله، عرض الكتاب للبيع بسعر كبير. ماذا يفعل وقد ربطه شيء قوى بالكتاب؟ أثناء زيارة زوجة خليل لــه فى السجن، كانت تحمل لزوجها حلّة مليئة بالطعام. بعد أن فــرغوا مــن الطعــام ونام الرجل السودانى. أخذ الكتاب ووضعه فى الحلّة وأمر زوجة خليل أن تحتفظ عندها بالكتاب حتى يخرج. عندما استيقظ الرجل وسأل عن الكتاب قالوا له بصــوت واحد: عفريتك خده. ثم ضحكوا وأعطوه كل ما فى جــيوبهم فســكت. بعد أسبوع خرجوا من السجن مع توبيخ الآباء والمأمور: ولاد الناس يعملوا كده.

أمســك عــبدالله بيد إسحاق بحرص وعبرا القنطرة التى تقطع الترعة إلى غيط العنب. عبدالله لم يقدر أن يحتفظ بما سمعه عن البيت الجديد الذى بناه صديقه لابنه. مخلوف حل الخلاف بينه وبين حربى، لكن ابن حربى قال إن إسحاق أمر ببناء البيت الجديد موصياً البنائين أن يكون طبق الأصل من بيت حربى علام العريق. عبدالله لا يعرف أن إسحاق بلغه ما يقال وقرأ أيضاً ما يفكر فيه الآن.

– عبدالله عايزك تشوف البيت الجديد ولو طلع شبه بيت حربى علام هَدَّه وابنيه من جديد.

* * *

بيت صابر جاب الله على الشارع. حرص على فتح دكان صغير فى الغرفة المطلة على الشارع؛ لتلبية طلبات الذاهبين إلى غيطانهم طوال النهار والليل، فى نفس الوقت يزيد دخله ويتخلص قليلاً من تبعيته لابن حربى علام وبيت حربى، الدكان بضاعته قليلة وينقصه الكثير. هذه ليلة عجيبة، دخل البيت، لم يفتح الدكان، حاول أن ينام. تطلع إلى سقف غرفته العالى ثم أرتد ببصره إلى مؤخرة زوجته المرتفعة. وضع يده عليها، قبل أن يبحر، تذكر ما حدث الليلة فشعر بالقرف والحزن على بنات الناس.. يحرص ابن حربى على أن تكون سهراته فى الدور الثانى من بيتهم المطل على البراح. الدور الثانى ينقسم إلى صالة كبيرة، يجلس فيها مع أصدقائه، يلعبون القمار، يدخنون الحشيش ويشربون. باقى الدور، ممر قصير فى آخره مطبخ وحمام وغرفة نوم. يربط بين القسمين باب صغير. هذه الليلة لم يتخيل أن يحدث ما حدث. وأن تصل الأمور إلى هذه الدرجة.

عندما قام ابن حربى من بينهم ودخل من الباب الصغير إلى القسم الثانى، لم يسأله أحد إلى أين. هم يعرفون منذ

بداية سهراتهم أنه يتركهم ويدخل الحمام أو يحضر شيئاً من المطبخ. دائماً كان يغلق خلفه الباب الصغير. هذه المرة تركه مفـتوحاً وغـاب طويـلاً. بعد فترة سمعوا أصواتاً آتية من الداخـل. شتائم وصفعات ثم صوت أنثى تئن وتتوجع وكأنها تضـاجع. هـم متأكدون أن بالداخل لا توجد سوى زوجته. حـاولوا نسيان ما يحدث بالداخل والاندماج فى السهرة ولم يقدروا. تأكد ظنهم عندما خرج عليهم، شبه عريان، منتشياً، وطالباً منهم الثناء على فحولته.

* * *

عـند أذان الفجر ترك عبدالله أبو الحمد، صديقه إسحاق وسـار تجـاه جـامع البحر. رفع رأسه للسماء فرأى زرقة شـاحبة حانية. نسمة رقيقة تمر على وجهه. تمنى فى هذه اللحظة أن ينعم الله على صديقه بالصبر وأن يخفف قليلاً من حدته. لقد عاشا معاً أيام الشباب والجموح، حتى ليلة السجن وعـثوره على ذلك الكتاب الذى فتح له آفاقاً لم يحلم بها. لم يكـتف بهذا الكتاب، بل اشترى وجمع كل الكتب مثله. جزء كبير من الكتب عثر عليه فى بيت قريب له. قبل أن يدخل من بـاب الجامع، لمح عند التل، حجراً أبيض كبيراً عليه نقوش بـارزة. جانـب الحجر كلب ضخم فى حجم أسد، يقعد على مؤخرته ويرفع رجله اليمنى ويضعها على الحجر. فعلها أكثر

من مرة. دخل عبدالله الجامع بسرعة. لو لم يكن ذا أعصاب حديديـــة لفقد عقله. أسند رأسه على حائط وأخذ نفساً عميقاً وعيناه مغمضتان. عندما فتحهما وجد أمامه رجلاً بلا ملامح محـــددة، معه إبريق فضى اللون، صغير الحجم، يصب منه المـــاء على يديه ورجليه للوضوء. ماء الإبريق تنبعث منه رائحة الزعفران مخلوطاً بماء الورد والنعناع.

* * *

كان الأتوبيس واقفاً أمام الفندق، ليقلّ الفوج عائداً به إلى القاهرة. على بعد أمتار، بدأوا فى إقامة قرى سياحية جديدة. لـــو اســـتمروا علـــى هذا لن نجد مكاناً للمشى أو مشاهدة البحـــيرة بـــلا حواجـــز، أو تذاكـــر دخـــول. أعضاء الفوج مســـرورون. كريستين ذكرتنى بحلمها فى العودة مرة ثانية وشـــراء البيـــت الصغير وضرورة تنفيذ وعدى وأزورها فى المقطم قبل سفرها.

نظـــرتْ إلـــى رجب طويلاً وتحولتْ إلى حالة من الكآبة. تحـــرك الأتوبيس وابتعدت أنا ورجب صوب مزارع السمك. اختصاراً للطريق مررنا بين البوص الكثيف الذى نما بتوحش فـــى المياه الضحلة. عند عبورنا قنطرة صغيرة تفصلنا عن الشارع الرئيسى، رأينا مخلوف آتياً نحونا، على رأسه العِمَّة البيضـــاء الشـــهيرة، تـــنحدر حافتها، لتغطى عينيه وتقيهما

الشمس والتراب. أخبرنا أنه فى طريقه إلى بيت سعد خالد، ليحل الخلاف بينه وبين أولاده، بعد أن فعلها سعد وانتقم بما يشبه الضربة المفاجأة على الرأس.

سحب سوداء غطت مكان وقوفنا وألقت بظلها علينا. رفعنا أبصارنا للسماء رأينا عشرات الطيور تحلق. بعضها حط على ذؤابات البوص وأشجار السنط. فى أقصى المكان، على الجسر البعيد، فتى يركب حماراً ويجر بقرتين خلفه. اقترب منا رجل حافى القدمين، يحمل بين يديه شبكة صغيرة، عالق بها سمك. سلم علينا وأخبر مخلوف، أن الرجال فى انتظاره. استأذن مخلوف ومضى ومعه الرجل. تعجبنا على فعلة سعد ومضينا أنا ورجب. ثغاء الغنم المتواصل يصل إلى أسماعنا من بين أعواد البوص والسنط وبقايا الأشجار والحشائش التى زوى عودها بسبب ازدياد ملوحة الأرض وارتفاع منسوب مياه البحيرة. عشرات الأفدنة لم تعد تصلح للزراعة. معظم الأفدنة من أرض مسعد ضرغام. أهل البلدة قالوا إن هذا هو الانتقام الإلهى. مسعد منذ سنوات لا يظهر. مريض ولا يقدر على الحركة. الإشاعات كثيرة، الجميع يؤكد أنه فى الماضى حاول اغتصاب خادمته. عندما قاومته بشدة. ازدادت رغبته فيها ولم تفلح محاولاته معها فتزوجها. بعد تسعة شهور أنجبت. أخذ الطفل منها وأعطاه لأحد الخفراء

ليلقــيه فى مياه البحيرة. بعد سنة من الحادث أنجبت له ابناً ثانــياً. ألقاه الخفير نفسه فى البحيرة. كان صوتها وبكاؤها وعويلها لا يتوقف: ولادى ولادى حرام عليك أنت مش بنى آدم. إحــدى الخادمــات فى البيت، أخبرت بعض النسوة أن الســبب يــرجع إلى زوجته الأولى، غنية ومن عائلة كبيرة. خــيرته بينها وبين أولادها وأولاد الخادمة. فى المرة الثالثة حدث شيء مختلف. بانت علامات الحمل عليها. تنبأ من رآها بمصــير الطفل الثالث. مع هوجة الانتخابات وانشغال مسعد ضــرغام بالانتخابات وبمساعدة جسمها القوى حملت طفلها الثالث وتسللت هاربة خارج البلدة..

هــذه البلدة رغم أنها تبدو هادئة، مسالمة، إلا أنها تفور وتغلــى بالأحقــاد والضــغائن. آبــاء يقتلون أبناء. أبناء لا يهتمون بمشاعر الآباء.

كان طبيعياً أن يفعل سعد خالد ما فعل. الخطة أو الضربة تكونــت وترعرعــت داخله بعد وفاة زوجته، وزواج أبنائه الواحــد تلــو الآخــر. تم حصره فى غرفة ضيقة من بيته الواســع. محاصــيل الأرض وأرباحها، بات لا يعرف عنها شيئاً. ذهابه إلى أرضه أصبح غير مرغوب فيه. أمسى دائم الشكوى من جحود الأبناء وعدم تلبية زوجات أبنائه لأشيائه وطلــباته البسيطة: بيتى وأرضى وبشحت اللقمة والسيجارة

مـــنهم. نســـى الأبـــناء شيئاً مهماً. البيت والأرض مكتوبان ومسجلان فى الشهر العقارى باسم أبيهم سعد خالد، لذا كان ســـهلاً جـــداً أن يبيع البيت والأرض لأحد الأثرياء الغرباء، ويـــترك أبـــناءه وزوجاتهم وأطفالهم فى الشارع وفى حالة ذهول.

* * *

راحة القلب فى الليل.

العينان اللتان فقدتا الأبصار. القلب الذى لم يعد يدق لامرأة ثانـــية. الأصـــدقاء الذين اختصروا فى واحد أو اثنين. الابن الوحـــيد. الـــزوجة التى لم تعد تعنيه أو يعنيها منذ اكتشافها علاقته بثريا. كل هذا بات كالصدى. يتحدث مع ابنه من وقت لآخـــر، يحاسبه على فلوس مزارع الدواجن ومناحل العسل ومحلات اللبن والبيض. يناقشه بحماس وعقل صاح. هذا ما يظهر. لكن بداخله خبا كل شىء، انطفأت القناديل كما انطفأ بصره. لم يتبق له سوى الليل. هل يقدر أن يقبض على الليل ويقطعـــه قطعـــاً صغيرة، يدفع بها فى قلوب المحزونين؟ لا شـــىء يبقى، الكل باطل. لم يخطئ فى حق زوجته. تزوجها كمـــا أراد أبيه، بنت ناس وغنية، عاشا معاً بلا منغصات أو مشـــاكل حتى أنجبا سامى. استراح واستراحت وكفت أسرته وأسرتها عن الكلام والتلميحات الفارغة.

لقـــد انقلب كيانه فى النهار، عندما رآها تقف مع صبحي، مسئول مزرعة الدواجن. كان يتناقشان فى الأسعار وشكوتها مـــن الخسارة بعد أن تأخذ الفراخ والبط وتبيعه فى السوق. لفـــت نظره طريقتها العملية فى البيع والشراء وذكاؤها فى تخفـــيض السعر وكأنها تاجر متمرس. مع ذلك تبدو جميلة، ممشوقة الجسم، وجهها أبيض مستدير، لها عينان سوداوان وفـــم صـــغير. عرف من صبحي أنها تعيش مع طفليها، بعد وفاة زوجها. عندما تخرج تتركهما فى رعاية الجيران. ليس لهـــا أهـــل غير عمتها، تزورها على فترات. تعامل الرجال والنســـاء على حد سواء، بلا حب أو كره. لقد أحبها وأحب كلامها وطريقة وقفتها ومشيتها وأسلوبها فى معاملة الناس حولها.

مـــن خلال كلامه مع صبحي وسؤاله المستمر عنها أدرك الرجل اهتمامه بالمرأة. عندما كانت تأتى وبعد السلام وكلمة أو كلمتيـــن، يتصـــنع الغضب والضيق ويصيح بصوت عالٍ: ياســـتى صاحب المزرعة هناك اسأليه على تمن البضاعة. وصـــاحب المزرعة يجلسها بجانبه، حتى يفرغ مما فى يده. يســـأل عن الأحوال والأولاد والسوق. يقدم لها الشاى بيده وينظر فى عينيها طويلاً. فجأة انقطعت عن الذهاب للمزرعة. أرســـل صبحي يستكشف الأمر. عاد إليه وأخبره أن: الست

عـندها برد. حمل ما استطاع من البرتقال والليمون وذهب إليها. وهى تفتح الباب، فوجئت به. لم تقدر على كتم الشهقة التى خرجت منها. احمرت وجنتاها، بالكاد طلبت منه التفضل بالدخول. بيتها هادئ، نظيف، ثلاث غرف تفتح أبوابها على صـــالة. نهاية الصالة باب مفتوح يرى من خلاله فسحة بها نخلة وشجرتان أو ثلاث من أشجار الزيتون. الطفلان يلعبان بوداعـــة. شـــعر بالـــراحة والأمان. هذا بيته وهذه زوجته الحقيقـــية الـــتى تمناها. جاءت حاملة صينية صغيرة عليها كوب شاى تفوح منه رائحة القرنفل. بلا وعى وضع يده على جبهتها، استسلمت ليده وأصابعه التى تحسست وجنتها ببطء ولـــذة. أغمضـــت عينـــيها، رأى رموشها السوداء الطويلة وأحـــس بنفسها الدافئ على أصابعه. لن يتمادى. طلب منها الكف عن الذهاب للسوق وتكتفى ببيع البيض وعسل النحل: تبـــيعى وأنـــت قـــاعده فى بيتك وعشان ماتزعليش الأرباح بالـــنص. فى تلك الأيام شعر بالنشوة والسعادة. ولأن ناس البلدة لا يكفون عن الكلام وتتبع أحوال الناس، عرفت زوجته بالعلاقـــة ولـــم تفلـــح تفسيراته وأجوبته للرد على أسئلتها. اقـــترب منها فصرخت بكل قوتها: والمسيح الحى ما تلمسنى مـــن هـــنا ورايح. حرمت جسدها عليه. بينه وبين نفسه لم يهتم. منذ فترة يمارس معها الجنس، كأنه واجب ثقيل. أرقه

فقـــط تســـاؤلات ســـامى ابـــنه. واستمر الحال حتى حدثت المصـــيبة. فى ستة شهور أكل السرطان جسم وروح حبيبته ثـــريا. دفـــن قلبه معها. بعدها بسنوات فقد بصره. آه، دور يمضى ودور يجىء والكل باطل.

* * *

ونحن سائران على شاطئ الترعة والرائحة الحادة الثقيلة لنبات البرنوف تختلط بالأنسام اللطيفة، حكى رجب عن أبيه عبد المتوكل الذى فعل به وبأمه وأخوته، ما لم يفعله عدو أو قاطع طريق. هذا الأب جرب عدة أعمال وفشل. زادت طلبات الأسرة. مارس الشىء الوحيد الذى أفلح فيه، بيع إرثه. كتب عقـــد تنازل عن بيت قديم. عندما اعترضت زوجته قال لها: حـــبر علـــى ورق. انتهت فلوس بيع البيت، فباع فداناً من الأرض. حـــبر على ورق، انتهت فلوس بيع الفدان. كالعادة بحـــث عـــن شـــىء جديد للبيع. هذه المرة باع ما تبقى من الأرض لأحـــد أقاربـــه. صـــرخت الزوجة: الولاد لما يكبروا هـــيعملوا إيه. قال بهدوء، إن الأرض لم تذهب لأحد غريب والحكايـــة كلهـــا: حبر على ورق. بعد معاناة شديدة أقنعته الزوجة أن يجرب حظه فى التجارة. تاجر وخسر فباع ميراث الـــزوجة، مـــع ذلك استمر فى التجارة. مرة يكسب وعشرة يخســـر. فـــى يوم سقط على الأرض وأصيب بشلل نصفى.

الأبناء بدأوا العمل وحاولوا بناء مستقبلهم من لا شيء. حتى هـذا الـلا شيء لم يهنأوا به. الأب كان قد كتب على نفسه شيكات بمبالغ كبيرة. حبر على ورق. واكتشفوا أن الأب حتى بعـد مرضـه لعـب دوراً كبـيراً فى جعل أصحاب الشيكات يـرفعونها. لسانه الذى لا يكف عن الكلام وعدم قدرته على الاحتفاظ بسر دفعه أن يخبر من يزورونه، أن زوجته عندها حلّى ذهبية وفلوس سيأخذ منها ويسدد: لكن يا حاج أصحاب الشيكات صرفوا نظر بعد مرضك. هذا رأى أحد الزوار. غير أن الأب لـم يوافـق علـى هذا الرأى: عايزنى أدخل جهنم بـالديون. بالطـبع لم يدخل جهنم بالديون، لأن من صارت حياتهم جهنماً هم، رجب وأمه وأخوته الذين اشتغلوا فى كل شيء من أجل إعالة أنفسهم وتسديد الديون. رجب فى مكتب السـياحة يقـوم بأكـثر من عمل، مرافق سياحى، فراش، مراكـبى، سـكرتير. أخوته منهم القهوجى والسائق وصبى الخـياط والحرفى الذى يعمل فى أى شيء. نظرت إلى وجه رجب وهو يتحدث بانفعال ويسب ويلعن. أردت أن أخفف عنه قـائلاً أن كل الآباء لهم أخطاء: أنا كمان أبويه عليه ديون. لكـنه لم يقتنع؛ لأن أباه ليس له مثيل ولا نظير. اقتربنا من بيـت حربى علام. لمحنا أيمن غانم منكفئاً جانب السور، فى حالة وجوم تام. هدأ رجب وطأطأ رأسه ثم رفعها ونظر إلى

بحزن ومرارة وانفرجت شفتاه بالكلام: شيء قاسى قوى أن يكون لك أب حبراً على ورق.

* * *

أيمـــن غانم بن رزق غانم بائع الخضراوات الطيب. كافح حـــتى أوصـــل أيمـــن للثانوية العامة. الولد نابغة فى المواد العلمـــية. درجاته فى الرياضيات جعلت مدرسيه يضربون به المثل. نبوغه، فقره، انطواؤه، خجله، صفات هيأته كفريسة ســـهلة لابـــنة حـــربى علام. نصبت له الشبكة عبر خطوات بســـيطة ومجربة، استعارة كشكول، شرح معادلة، لمس اليد بشكل يبدو عفوياً، عزومة على شاى أو سندوتش فى كانتين المدرسة، تقييد اسم أيمن دون أن يعلم فى رحلات المدرسة إلى الأقصر وأسوان وسيناء، الإشارة للبنات أن يبتعدن عنه: أيمـــن بتاعى أنا. سقط العصفور سريعاً. لم تكن له علاقات قـــبلها ولـــم يصـــدق أن تكون ليلى أول بخته. ليلى أدركت بحاستها الأنثوية وخبرتها أنه سيكون طوع يدها وأسرع فى تلبية نزواتها. تعددت اللقاءات بينهما. بعد أن هدأت مخاوف أيمن، أقنعته باللقاء فى الحديقة المهجورة خلف بيتهم. كانت تحدثـــه بتلقائية وبساطة. أنسته الفروق الضخمة بينهما. فى ليلة عتمة بلا قمر، التصقت به وأمسكت بيده. احتضن بكلتا يديـــه وجهها وقبلها. رمت يدها بين فخذيه وكأنها لا تقصد.

ازدادت حـــرارة جسمه وانتصب. قبض على ثدييها وضمها بقوة. غاب عقله ولم يعرف ما دفعه لهذه الجملة "ليلى لازم أتجوزك"، تجاهلت الجملة. كررها أكثر من مرة وعلا صوته وأراد أن يعـرف رأيهـا فـوراً. رأيها كان سريعاً وعنيفاً.. صفعة قوية على وجهه.

* * *

مساءً اتصلت بى فاتن ودعتنى لزيارتها فى المقطم لأودع كريستين قبل مغادرتها مصر. فى صباح اليوم التالى كنت فى طريقى إلى القاهرة. نزلت من الأتوبيس عند نادى الرماية ثم ركبت سيارة سرفيس إلى ميدان التحرير. المسافة من نادى الـــرماية لميدان التحرير حوالى نصف ساعة. على الجانبين مبان شائهة، قبيحة. السائق شاب صغير مضطرب وعصبى. كدنـــا نصطدم بسيارة ضخمة. توقف أكثر من مرة ليتأكد من العجلـــة الخلفية والأمامية والجانبية. فى المرة الأخيرة نزل وفتح رادتاير السيارة ودلق ماء بداخله، حدثت فرقعة وأرتد الماء إلى وجهه: سليمة يا أسطى. علق أحد الركاب بصوت يجمـــع بين الضيق والسخرية. انطلقت السيارة بنا من جديد على صوت تعليقات الركاب حتى وصلنا بالسلامة للميدان.

مـــئات السيارات والأتوبيسات يغص بها ميدان التحرير. عند شارع جانبى توقفت. سألت عن السيارات أو الأتوبيسات

الذاهـــبة إلـــى المقطم. لا توجد سيارات من ميدان التحرير للمقطم مباشرة. وأنا أتلوى فى الشوارع وأتفادى السيارات، مـــررت بالقـــرب من رجل عجوز يجلس مع فتاتين. سمعته يصف لهما بصوت أجش وبكلمات وعبارات مكشوفة مشهداً جنسياً رآه بين رجل كبير وفتاة صغيرة. حدقت فى الرجل ثم فى الفتاتين لأعرف وقع كلامه عليهما. إحدى الفتاتين وهى بيضـــاء، نظرت لى من تحت لتحت وأنا أمر جوارهم وقالت بنعومة وتواطؤ وكأن الأمر عادى وغير جديد عليها: قصدك عملها مع البنت أمنية. ازدادت سرعتى أو اضطرابى وسألت أول شخص قابلته عن طريق المقطم: اركب أتوبيس السيدة عائشة. أخذت بالنصيحة وركبت الأتوبيس.

: الأتوبيس عِطل.

نزلـــت كان فى مواجهتى سور قديم طويل ومرتفع. سور جـــامع أحمد بن طولون. ولأول مرة ومنذ خرجت من بلدتى أحس بالهدوء والارتياح. جلست فى مقهى صغير أمام سور الجـــامع. على يمينى تكعيبة عنب، تفرش ظلها على الموائد والكراسى الخشبية: ياه كأنى مش فى القاهرة. صبى صغير وضع شاى بالنعناع على مائدتى. رائحة الشاى بالنعناع مع ســـور الجامع القديم ورائحة نشارة الخشب. والشارع غير

المــزدحم. مفــردات أعادتنى إلى حالة من الصفاء والمحبة للمكـــان. قــررت أن أتجــول علـــى مهل فموعدى مع فاتن وكريســتين مفــتوح طــوال اليوم. ارتفاعات المآذن، علو الأسوار، الشبابيك والأبواب القديمة الموصدة الغائصة حتى المنتصــف فـــى الأرض. كأن المكان يودك ويأخذ بيدك مثل صاحب بيت كريم وأصيل. خدر أصاب رجلى. جلستُ ملتصقاً بباب قديم فى مسجد أو تكية فى شارع شيخون. على مرمى بصـــرى مخزن خشب وأطفال يلعبون. قمت ومشيت صوب مــيدان صــلاح الدين. عند قلب الميدان وقفت. على يمينى القلعـــة وعلـــى يســـارى جـــامع السلطان حسن، دخلت إلى الســلطان حسن. مررت بين مجموعة من الدهاليز، ثم ممر معتم. فجأة وجدتنى فى صحن مكشوف للسماء. شعور غريب ورائـــع وأنـــا أجتاز ممراً طويلاً معتماً وفجأة أجد نفسى فى براح مكشوف للسماء. فى الأركان زخارف وكتابات وثريات ومشـــكاوات وفسقية مياه فى منتصف صحن المسجد. هالنى فى المسجد اتساع حناياه وسعة أبوابه. ازداد عدد الداخلين والـــزوار. خرجت إلى الشارع. تجولت بلا هدف. من شارع إلى شارع ومن جامع إلى جامع ومن تكية إلى سلسبيل حتى وقفـــت أمام يافطة مكتوب عليها شارع باب الوداع. لا شىء

بعد اليافطة سوى مقابر على الجانبين. سألت رجلاً عجوزاً، يحمل على كتفه قطعة خشب طويلة.

- فيه بعد شارع باب الوداع شوارع تانيه؟.
- مفيش إلا الترب.

ابتسمت للرجل وقلت له، إن هذا شارع توديع الدنيا. رفع وجهه المتغضن: والله يا بنى اللى يودعها يرتاح. سألته عن مواصلة للمقطم. نصحنى أن آخذ تاكسى. سائق التاكسى، كان فى مثل سنى. أعطانى سيجارة وثرثر عن ذكرياته فى جبل المقطم ومغاراته. حكى لى أنه وأصدقاءه فى الكلية من الشبان والفتيات جاءوا إلى المقطم ودخلوا إحدى مغاراته فى الثانية ليلاً فى الشتاء: طقت فى دماغنا. تخيلت ماذا يفعل مجموعة من الشبان والفتيات الساعة الثانية ليلاً شتاءً فى مغارة: دخلنا جوه وقعدنا وشربنا بيرة بس وخرجنا. لم أصدقه وقلت له: بيرة بس. أقسم مؤكداً على كلامه: آه بس. وصلت إلى باب عمارة فاتن. صعدت للدور السادس وضربت الجرس.

- يخرب عقلك أتأخرت ليه؟

حوائط الشقة مغطاة بلوحات كثيرة. فاتن تحب الرسم واقتناء اللوحات للرسامين غير المشهورين. تعرفت عليها عن طريق مدير مكتب السياحة. زارت معى البحيرة

والشلالات وصرنا أصدقاء. على فترات تطلب منى اصطحاب أصدقائها الأجانب فى الرحلات التى ينظمها المكتب للأفواج. أخـــبرتها عن رحلتى إلى شقتها وما حدث لى وخصوصاً من الســائقين. غرقــت فـــى الضحك ورفعت إلى عينى صفحة الحـــوادث فى جريدة يومية، بها موضوع عن سائق أتوبيس ألقـــى بنفسه فى النيل بعد أن وقف بالأتوبيس وسط الشارع وبـــه مـــئة راكـــب. أحد الركاب قفز خلفه واستطاع إنقاذه واقتيدوا جميعاً إلى قسم الشرطة، ثم إلى هيئة المواصلات ثم مكتب المدير الذى شد أذن السائق وأمر بحل مشاكله.

- يعنى حظك حلو.
- آخر مرة أزورك.

ضـــحكنا وأومأت برأسها للبلكونه، حيث تجلس كريستين منذ فترة: حالتها وحشه قوى. وصبت الشتائم واللعنات على زوج كريستين الغادر. لم أسايرها. كريستين كبيرة فى السن، ليست جميلة، بخيلة، تنقلب من حال إلى حال، دائمة الشكوى وكئيـــبة.. دخلـــت الـــبلكونه وسلمت عليها بمرح وذكرتها بالـــرحلة ورجب وسمك وطيور البحيرة. أمامنا كانت مائدة خيزران صغيرة عليها عدة مجلات وجرائد بالألمانية. إحدى هـــذه الجـــرائد، كما ترجمت لى، تسرد حكاية عراف أعمى، يقـــرأ الطـــالع للفتيات عن طريق تحسس أجسادهن. تحديداً

جــزء مــن أجســادهن. طريقة مبتكرة أليس كذلك؟ وجهت سؤالى لها مداعباً. قلت لها إننى حلمت أمس بشخص يشبه رجــب، كان يطارد امرأة جميلة، تجرى عارية بين البوص والحلفــا علــى شاطئ بحيرة قارون. انبسطت وابتسمت ثم عــادت إلــى شرودها. دخلت علينا فاتن وبين يديها صينية عليها شاى وحلوى. وضعتها وانسحبت. وكنوع من المداعبة ورغبة فى تغيير حالتها سألتها عن رأيها فى الزواج منى.

- لا. كفاية على مجنون واحد.
- أنا مجنون؟
- كل الرجال مجانين.

تكلمــت عن زوجها المصرى وعن فشله فى الدراسة فى ألمانــيا. كــان على وشك أن يطرد لولا أنها تزوجته وأخذ الجنســية. استمر الزواج خمس سنوات. إنها الآن لا تعرف ماذا يفعل.

- لــو كــان عايــز الجنسية فقط كان انفصل عنك بعد الزواج مباشرة.

اندفاعى أو غيظى كان واضحاً.

- هو خد الجنسية وفلوسى كمان.

شعرت برنة الكذب فى كلامها.

- خلاص اعتبرى الأمر انتهى.

أشـــارت إلى رأسها وقلبها: لسا هنا وهنا. صرختُ بأعلى صوتى، يا فاتن يا فاتن. جاءت مندفعة: مالك يا بنى. رويت ما حدث: صديقتك عايزه تجننى. جلست باسترخاء قبالتنا: يا سيدى كلنا مجانين من زمان. بعد ذلك تكلمت فاتن بالعربية والألمانـــية؛ لتســـمع كريستين. عن حالة تشبه حالتها ولكن المجنى عليه هذه المرة رجل. صديقها المصرى الثرى الذى تـــزوج ألمانـــية وأنجـــب منها وعاش هو وهى والأبناء فى القاهرة كأى زوج وزوجة. فى أحد الأيام وهو عائد من عمله لم يجدها ولم يجد الأطفال ولا النقود ولا الأشياء الثمينة. لقد هربت ومعها كل شىء.

كريســـتين لـــم تعلـــق على الموضوع. نظرتْ إلى شمس المقطـــم الغاربة وتمتمت بكلمات عن زوجها وطبيعة الرجال والحياة الخطرة.

غروب الشمس كان سبباً كافياً لاستأذن وأرحل قبل هبوط الليل.

* * *

خرجـــت من مكتب السياحة إلى معصرة ذات الصفا. فى طريقى خطر على بالى، طارق قطب زميلى فى الكلية. يسكن هـــناك ويســـتطيع مساعدتى. الفوج السياحى الجديد سيبدأ بزيارة كل المعاصر، أو بقايا معاصر الكروم وزيت الزيتون.

معصــرة ذات الصفا، على قائمة برنامج الزيارة. شهرتها بالبســاتين وغــزارة وجودة كرومها لفت إليها الأنظار منذ الزمن القديم. فى الماضى تشجع تجار النبيذ للمجىء إليها. سارت القوافل المحملة بكرومها ونبيذها إلى مدينة كرانيس ومديــنة أم الأثل وكان المحتفلون بعيد ديونيسيوس يحملون نبيذها وهم فى طريقهم لمكان الاحتفال..

ســنوات لــم أزر فيها طارق. خشيت من تضليل ذاكرتى فسألت راعى أغنام كان يمر أمامى بقطيعه، عن البيت.

تــرحاب طــارق وضحكه المتواصل أنسانى مهمة مكتب الســياحة. يتفوه بجملة أو اثنتين ويستغرق فى الضحك: إيه حكايتك. صدرت عنه كلمات وعبارات متقطعة فهمت منها أنه كان يشيع للقبر والد أحد أصدقائه. طبعاً الموضوع لا يدعو للضــحك بل الحزن. لكن للحكاية أبعاداً أخرى كما قال. لأن والد صديق طارق قبل أن يموت، كان دائم الشجار والزعيق مــع أخــيه الذى مات قبله. ودوماً كان صديق طارق يفض مشــاجرات أبــيه وعمــه. عــند موت العم هدأت أو انتهت المشــاجرات. هذا اليوم لحق الأب بأخيه. وهم ينزلون جثة الأب فــى مقــبرة الأسرة والتى حوت جثة العم. تغير وجه صــديق طارق وقطب جبينه ونظر إلى الجثتين شذراً وزعق

بصـــوت سمعه المشيعون: والله لو سمعت حد فيكم شتم أو ضرب أخوه هكسر عضمكم.

بعد عشاء خفيف، خلف البيت، تحت تكعيبة العنب. اجتر طــارق أيام سنوات الدراسة. قطار الكلام توقف عند محطة حياة سعيد، كنت ولازلت مغرماً بها. الأحاديث واللقاءات بينى وبينها كانت بمباركة طارق ووجوده بيننا. هى وهو زميلان فى قسم اللغة الإنجليزية لكنه كان يتركنا فور بدء حياة سماع الأغــانى الأمريكية التى تحبها ولا يطيق سماعها. لم أدرك وقــتها كنه العلاقة بينى وبين حياة وهل هى حب، إعجاب، انبهار بروحها وشخصيتها المختلفة، ولع بجسدها الفاتن أم تشابهنا فى أشياء لا محدودة.

ســـخر طارق من فكرة انجذابى لحياة لأننا متشابهان فى رؤيتــنا لأدق الأشياء بما فى ذلك رؤيتنا للجنس ووضعنا له فى مكان خارج الإرث والعادات والتقاليد والصداقة والحب.

- على فكرة الإنسان لما بيكبر بتتغير اهتماماته.
- قصدك إيه؟
- يعنى حكاية الشبه دى ممكن تتغير مع الزمن.

اتفقــت مع رأيه فى بعض الأشياء التى تتغير مع الزمن. لكـــن كيف تتغير أشياء فى روح ودم الإنسان. خصوصاً بعد اقترابه من سن الأربعين ولا يزال يفكر فى نفس المرأة التى

الـــتقاها منذ سنوات بعيدة. طارق أراد أن يختم الحديث عن حـــياة سعيد. بطريقة يعرف مدى غموضها: لو كنت مارست الجنس معها يمكن كنت غيرت رأيك. لم أفهم قصده بالضبط: قصـــدى أنهـــا ممكـــن أثناء ممارسة الجنس تخيب ظنونك وخيالاتك. يعنى تبقى عادية زى أى واحدة. أعرف أن الإجابة فيها فخ، وأعرف أيضاً ومن نتائج لقاءاتنا السريعة أنا وحياة أن الاستمتاع بالملامسة والتفاهم بين جسدينا كان تاماً: آخر الكـــلام حياة أطلقت تقدر لو عايز تتجوزها. أصبت بالوجوم من الخبر. همهمت بكلمات عن القسمة والنصيب والظروف.

أخرجـــنى طـــارق من حيرتى واضطرابى ودعانى للمشى على الطريق الزراعى بين أشجار البرتقال والليمون. سألته عـــن غيط شاسع به صهريج لتخزين المياه: دا غيط الشيخ محمـــود. الشيخ محمود كان سيد المنطقة أيام العهد الملكى وكانـــت له طموحات أكـــبر من قدراته. وفى حادثة شهـــيرة عـــرف الشـــيخ محمود بزيارة الملك للبحيرة وبمروره على المـــنطقة. طمعاً منه فى تحويل لقب الشيخ إلى بك أو باشا، قطـــع معظم أشجار الليمون والبرتقال ووضعها على جانبى الطـــريق. قـــام كذلـــك ببناء بوابة كبيرة مزخرفة بالزينات وعـــبارات الترحيب بجلالته. ومر الموكب فى منطقة الشيخ محمود. تبختر جلالته بين أغصان الليمون والبرتقال وتهليل

الـــناس. صـــافح كبار القوم وعندما جاء دور الشيخ محمود للمصافحة، نزل الصمت على الجميع؛ انتظاراً أن يلفظ الملك كلمـــة الشكر مشفوعة بـــ بك أو باشا، إلا أن الملك نظر فى وجـــه الشـــيخ محمود الشديد السمرة، وبعد ثوان وبعد أن اشـــرابت أعـــناق الناس وفتحوا آذانهم وبعد أن نضح وجه الشـــيخ محمود بالعرق، قال جلالته بصوت عالٍ فخيم سمعه الناس: شكراً يا شيخ محمود.

* * *

قالوا للديب حيسرحوك فى الغنم قام بكى، قالوا له بتبكى ليه؟ قال: خايف يكون الخبر كذب.

قهقه عبدالله أبو الحمد وهو يعلق بهذا المثل على ما قاله صـــابر جـــاب الله وشكوته من نساء بيت حربى علام اللاتى يرهقنه بالطلبات والمشاوير وأشياء غاية فى السرية لا يقدر أن يبوح بها سوى لعبدالله أبو الحمد خزنة أسرار البلدة: يا عـــم عـــبدالله دول بيحلبونى. تغيرت ملامح عبدالله وظهرت عليه الجدية: فيه حاجة يا صابر. صابر همس له عن نزوات نساء البيت الكبير. عن استخدامهن له كما يستخدم أزواجهن خادمـــات البيت. عن نوم الضحى وخلو البال والطعام الدسم ووقت الفراغ. عن شغفهن بالنوم فوق صابر وشتمه وضربه فـــى حالـــة الرفض. عن السخرية منه عندما يرتخى عضوه

ويصيبه التعب: بيحلبونى يا عم عبدالله. فهم عبدالله خطورة هـذه الأسـرار. أمر صابر بالسكوت ووعده بامداده بالمال ليشـترى بضـاعة ويوسـع دكانه ويستغنى نهائياً عن بيت حـربى علام. صابر استمر فى الكلام. هذه المرة عن رجال بيـت حـربى. عن الابن الكبير الذى طرد زوجته من البيت لرفضها نزواته. دخل على زوجة أخيه الأصغر فى المطبخ. التفتـت المرأة إليه وسألته إن كان يريد شيئاً: عايز حاجة. نظـر إلـيها وهو يتقدم نحوها ويمسك بعضوه: عايزه أنتِ حاجة. صرخت المرأة والتم من فى البيت. اتفقوا على حتمية أن تـرجع الـزوجة المطـرودة، حتى لا تخرج الأمور عن سـيطرتهم وتحـدث فضيحة يتندر عليها أهل البلدة: يا ابن الكلب سد حنك أهلك. نهره عبدالله هذه المرة وهو فى غاية الانفعـال والغضب. أحس صابر بالقهر فترقرت الدموع بين عينيه وارتمى فى حضن عبدالله باكياً كطفل فقد أهله.

* * *

تنامـت المشـاكل حولى. اكتشفنا أن ديون أبى أكثر مما توقعنا. يوماً ما سوف أشتكى على طريقة رجب. رجب أيضاً زادت شـكواه من الديون التى لا تنتهى ومن مضايقات مدير المكتـب. مدير المكتب هو الآخر يشكو من قلة عدد الأفواج وازدياد نفقات المكتب. سلسلة من الشكاوى.

تعمقــت فــى المــناطق المحيطة بالبحيرة رغم معرفتى بجيوش الناموس وأعشاش وأوكار الطيور الجارحة ومخابئ الذئـــاب والأكشاك الخشبية لسارقى السمك، الذين يصطادون فـــى الوقــت غـــير المســـموح به. منغصات لم تمنعنى من اســـتكمال الســـير بين أدغال البوص والحلفا، أخيراً وصلت لهدفـــى. مكان مرتفع يمكننى من فوقه مشاهدة البحيرة وما يحـــيط بها. كما يمكننى الاختباء بين أحراشه. مكان أحببته وللأسف أذهب إليه وقت الشعور بالضيق وانحصار المسرات وزوال الـــبهجة. مـــع أنه مكان نادر ومرتبط بامرأة غريبة الأطـــوار. لا تزال تحوم وتظهر فيه. أحد الصيادين أخبرنى أنها كانت جميلة جداً وكانت لا تترك صلاة وتكثر من الدعاء والتسبيح، من الواصلين فى بحر المحبة. دائماً كانت تُرى فى حلقات الذِكر، بين الدراويش والسالكين الذين قطعوا العلائق مع الدنيا. وحدث ما لم تتوقعه هى أو أى إنسان. وقعت فى حب ضابط شرطة البلدة. لم تعرف سبباً لذلك وهل هذا الحب نور قذفه الله فى قلبها أم سهم نار من الشيطان؟. كانت بعد اللقـــاء مع الضابط تذهب مباشرة إلى حلقات الذِكر. أسرتها عرفت وكلفت أحد أفرادها بقتلها. ضربها أحدهم على رأسها بقطعة حديد، لكن الضربة لم تقتلها وتركت أثراً عليها. قبض

علـــى ذلك الرجل بتهمة الشروع فى القتل وأسرتها صرفت النظر عنها وعمّا تفعل بعد نقل الضابط إلى مكان بعيد.

* * *

العالم يمضى كلفة العِمَّة.

هاهو مولد الشيخ خضر يعود من جديد وكأن الناس الذين يــأتون مـــن الـــبلاد المجاورة والمغنين والمنشدين وباعة الحمـــص واللب والفول السودانى وأصحاب المراجيح ولعب الأطفـــال، كـــأن هؤلاء لم يبرحوا مكانهم منذ العام الماضى. الزمـــن يجـــرى بنا. هكذا فكر عبدالله أبو الحمد وهو يتأبط ذراع صابر جاب الله. أصبحا لا يفترقان. دخلا إلى خيمة بائع العطـــارة واشتروا بخوراً يحتاجه عبدالله. من الخيمة مشيا حتى مقام الشيخ خضر. المقام مزدحم برجال ونساء وأطفال. قـــرآ معاً الفاتحة وقبل خروجهما من عتبة الضريح صرخت امرأة طويلة ضخمة، ثقيلة الأرداف، أن رجلاً عبث بمؤخرتها وهى تقبل زاوية ضريح الشيخ. بعد صراخ المرأة وشكواها، شكت نساء أخريات من وجود رجلين لا يكفان عن التحرش بالنساء الداخلات والخارجات. قام الرجال الزائرون بالاشتباك مـــع الرجليـــن. تحـــول الضريح إلى ساحة شجار وصراخ وعويل. هدأت المعركة وتفرق من فى المكان مدهوشين بعد أن خلـــع خادم الضريح حذاءه وانهال به على ضريح الشيخ

وهو يصرخ بشكل مجنون: ازاى المسخرة دى حصلت وأنت موجود إيه لزمتك إيه لزمتك.

* * *

لم يتبق له سوى لذة الأصابع.

عبدالله أبو الحمد لا يكف فى الليل بعد إشعال البخور عن البحـث فـى كتب السحر القديمة عن دواء لحالته. سنوات والفشل يتكرر. أطباء الدنيا أخبروه بعدم وجود دواء عندهم. ليـته فقد بصره مثل إسحاق، ربما كان أهون عليه. أيمكن لرجل عشق النساء مثله أن يحرم من الدخول فى أجسادهن. قبل الكارثة كان لا يكف عن الجرى خلفهن. الآن لم يتبق له سوى أصابعه الطويلة العجوز، ترتعش عندما يغضب وعندما تتصـاعد شهوته. النساء يأتين إليه هذه الأيام التماساً لعمل الأحجـبة وفك المربوط وزواج الفتيات. يبتسم لتذكره امرأة جاءت إليه ترجوه عمل حجاب لزوجها كى لا يسافر ويتركها وحـيدة تعانى من فوران شهوتها. وتلك المرأة العابثة التى سـمعها وهو نازل من عند أحد أصدقائه فى المدينة. كانت تخاطب جارتها وتخبرها بتصميم زوجها السفر لمدة شهرين أو ثلاثة إلى الأراضى المقدسة للحج: مبروك. قالت جارتها. ردت المرأة: يا أختى وأنا أعمل إيه يعنى أشوف لى فحل من بـره. عندما رفع رأسه آنذاك ليرى وجه المرأة، نظرت إليه

بتهتك ثم وجهت الكلام لجارتها: كده خلتينى غلطت والراجل نــازل. الجــيران والأصــدقاء يتركون عبدالله يدخل بيوتهم ويجلــس مــع نسائهم. هم على يقين أنه صار نصف رجل وزاده التقدم فى السن وقاراً. يكره فيهم هذا اليقين. لا يزال قــادراً على تحسس لحوم النساء بأصابعه الشبقة. يقدر أن يميز من أول لمسة بين فتاة وامرأة، بين امرأة غنية وامرأة فقــيرة، بيــن جســم مفتوح النوافذ والأبواب وجسم مغلق مختوم. عالم المرأة الأول، جسمها، مدارها، تتحرك بقوانينه. العجيب أن هذا العالم الشهى مفتاحه عند الرجل، رغم إدعاء النســاء غير ذلك.. انتشله من أفكاره قدوم صابر جاب الله متأبطاً ذراع إسحاق وخلفهما حربى علام وخفيره خليل. رغم مــا حدث ويحدث بينهم إلا أن الزمن لقنهم درساً. الأرض، المــال، الأبناء، أشياء يقوم الزمن بسرقتها من الإنسان كل دقيقة. لذا يجب على البنى آدم أن يستكين ويهدأ ويبحث عن ســاعة ســلام وصفاء بين أصدقائه قبل أن يسرقهم الزمن أيضــاً: السهرة عندك الليلة. قالها حربى بصوته الجهورى. رحــب بهــم وعانقهم. قبل أن يجلسوا اقترح إسحاق مكان الســهرة فى الهواء الطلق تحت شجرة الجزورينا الملتصقة بســور البيــت: ماشى يا عم. علق حربى نيابة عن صاحب البيــت، وكــبادرة أن اللــيلة ستمر بسلام ولن يشتبكا معاً.

عـــبدالله يعلم حب إسحاق للهواء والبراح، لا يريد الإحساس بالظلام والاختناق.

هـــذه السهرة الهادئة كان يمكن أن تتواصل للفجر، لولا قـــيام صابر بعمل الشاى. على بعد أمتار منهم أشعل الكانون ووضـــع علـــيه البراد. بعد دقائق أطفئ الكانون وعاد بينهم حاملاً البراد وبدأ فى صب الشاى. من حسن الحظ أن صاحب البيت كان يتابعه. رأى الشاى نازلاً فى الكبايات بلون أزرق وأخضر. مد يده وأخذ كبايه وتذوقها بطرف لسانه: الشاى ده فيه حاجة يا واد يا صابر. أخذ من صابر البراد. نظر فى قاع البراد فرأى عقرباً مفتتاً بفعل الغلى. علا صوت عبدالله وهو يقول عقرب. سأل إسحاق عبدالله بسرعة وحماس، ليتأكد من الموضـــوع: عقرب بجد يا عبدالله. أجابه عبدالله: أيوه. رد بحمـــاس أشد: طيب خلى حربى يشرب البراد كله. انفجروا جميعاً بالضحك واتفقوا على فض السهرة.

* * *

لما أقول إنى صحيت أسكر من جديد.

ولما أقول إنى انتهيت أبدأ من جديد.

كلمـــات يدنـــدن بها فرغلى الخياط. سألته عنها فقال إنها أغنـــية مـــن سيوة ولم يزد. كبحت فضولى؛ لمعرفتى أنه لا يحـــب الكـــلام والأســـئلة. الزبائن اعتادوا على صمته وقلة

كلامـــه. يــأتى الــزبون ويوجــه حديثه للصبى فى حضور الأســطى. يســمع فرغلى وينفذ. أما الزبون الجديد الذى لا يعــرفه ويوجه كلامه وطلباته للأسطى. غالبا تكون الإجابة عــن موعــد تســلمه ملابســه وكيفــية حياكتها، بغمغمات وتمــتمات. إذا زادت أســئلة الزبون يخرج فرغلى كلمة أو جملــة مــن بيــن أسنانه يلعن بها المهنة ودرجة الحرارة والأغبياء.

فرغلى يرى فى الصيف والشتاء مرتدياً جلباباً خفيفاً على اللحــم. يدخل الدكان مع غروب الشمس. حلم حياته المعلن، الحياة فى بلاد الأجانب. لا يريد من تلك البلاد شيئاً إلا درجة حــرارتها المنخفضة. فى ظهيرة الشتاء، عند اشتداد أشعة الشــمس، يلعــن الشتاء المراوغ، لأنه لا يسير على وتيرة واحــدة. أما نهار الصيف فلا يمكن وصف مشاعره إزاءه. يكفــى أنه فى ليلة زفافه، تصادفت مع بداية فصل الصيف، تــرك زوجته بعد ساعة من انغلاق باب غرفة النوم عليهما. نزل إلى الشارع وفتح الدكان وهو يكز على أسنانه شاتماً من حددوا موعد الزواج ومعلناً عن عدم اقتناعه بفكرة الزواج: مــش ضرورى الراجل ينام حاضن مره. عندما مر الصيف وجاءت ليالى الشتاء، تأكدت فكرة رفضه للزواج، بعد تيقنه من مرض زوجته. تقوم من النوم فجأة وتصفع من بجوارها.

فعلتها معه عشرات المرات. سأل أمها وأخوتها عن السبب: دى حاجـة من زمان قوى. هكذا ردت عليه الأم والأخوات. إذن وقـع فى الفخ. ارتفاع درجة الحرارة ومرض زوجته، دفعـاه إلـى هجرة البيت وقضاء الليل فى دكانه ومع صبيه محمود أخو رجب. على فترات يسهر معهما إبراهيم رياض مـدرس التاريخ. أثناء النهار يضع فرغلى كرسياً بلاستيكياً ويجلـس عليه أسفل الكوبرى المقام على البحر. يجلس فى المنطقة التى لا يزيد عمق المياه فيها على نصف متر. يكون فى المنتصف والمياه تتدفق وتجرى حواليه. فى تلك الدقائق يمكن له الشعور ببعـض الرضا. عندما فعلـها أول مرة ظن الـناس بـه الجنون، لكن اشتغل كالمعتاد وحدثهم كالمعتاد وشـتمهم كالمعتاد. تجرأ إبراهيم رياض وسأله عن السبب: شـفت الدب يا بقر. هكذا أجاب وشرح بصبر نافد، أنه رأى الدب فى حديقة الحيوان محاطاً بالمياه. سأل الحارس فقال له إن الدب بهذه الطريقة يستطيع تحمل درجة الحرارة العالية.

إبراهيم رياض كان يريد أن يسترسل فى أسئلته غير أنه لـم يقـدر وأيضـاً لمعرفـته كره فرغلى للحر وتوقه لبلاد الأجانـب. تلـك البلاد البعيدة حببت فرغلى إليه مع اختلاف هـدف كـل منهما. فرغلى يبغى السفر بسبب ارتفاع درجة الحرارة هنا. هو يتطلع للسفر هناك من أجل نساء تلك البلاد.

لقد شاهدهن فى المناطق الأثرية وشاهدهن فى الأوضاع التى يحـبها ويعشـقها علـى صفحات مجلات البورنو وشرائط الفـيديو. وسـمع عـن شـغفهن بالجـنس بجميع الأشكال والأوضاع. طلق زوجته الأولى بعد شكوتها منه ومن طريقته فى مضاجعتها. انفصلت عنه الثانية بطريقة مثيرة. كانت من بيت متدين. ترتدى الحجاب وتصلى وتقرأ الأوراد. فى ظهيرة أحد الأيام أخبرها واش أن زوجها مع امرأة فى بيت مشبوه. خرجـت مسـرعة وعند أحد الأبواب سمعت صوت زوجها. بغـيظ وغـيرة ضربت الباب بكلتا يديها ورجليها وصرخت بأعلى صوتها: اطلع أنا عارفة أنك جوه. بعد ذلك رجعت إلى البيت وألقت الحجاب جانباً وتزينت وتعطرت وتركت شعرها منسـدلاً على كتفيها ولبست فستاناً مكشوفاً وخرجت حافية القدميـن حتى بيت أبيها. الأب عندما رأى ابنته بهذا الشكل وعرف ما جرى، أقسم أن يطلقها قبل غروب الشمس.

بعد هاتين المرأتين لم يتقدم لأية أسرة داخل البلدة. بحث فـى البلاد المجاورة وعاد متزوجاً بامرأة. انجب منها ولداً وتحملته فترة ثم تفجرت المشاكل. ولأنها: مش بنت أصول. ذهبت إليه فى المدرسة وشتمته وسط زملائه وتلامذته: أنت فاكر نفسك راجل. أصيب فى رجولته ورد الشتيمة: يا مره دا أنـتِ بتبقى عطشانه وما ترضيش تقومى من تحتى. وتدفق

طوفـــان الشـــتائم والفضائح والأسرار. حاول الناس الصلح بينهما من أجل الطفل، لكنها رفضت. وهو أراد هدنة وراحة مـــن النســـاء. مع الأيام والتجارب، تأكد ما نما بداخله من نـــوازع خاصـــة بعد معرفته من أحد المشايخ بقدرة النساء الشـــقراوات وصـــبرهن وجلدهن على المضاجعات الطويلة. أمســـى يفكر جدياً فى السفر إلى بلاد الأجانب أو على الأقل يـــتزوج واحـــدة منهـــن. دون أن يدرى وجد نفسه يصاحب فرغلى الخياط. شعر أن فى البلدة شخصاً قريباً منه، كما أن هـــذا الشـــخص لا يعبأ كثيراً بأسرارك ورغباتك الخفية ولا يسألك من أين جئت ولا إلى أين تذهب.

***

منذ سنوات بعيدة لم يتغير نظام مسعد ضرغام. الأمراض المزمـــنة، تأنيب الضمير، الإشاعات، أفول نجمه، حزمة من الـــبلاوى منعـــته الخـــروج مـــن البيت. السهر حتى الفجر، الاســـتيقاظ فـــى منتصف النهار، تناول وجبة خفيفة، قراءة الجرائد والمجلات ثم متابعة أخبار البلدة عبر أحاديث خادمه العجـــوز، المتبقى من الإرث القديم. ألحت عليه ذكرى تأميم بعـــض ممـــتلكاتهم. ساعتها نصح شخص أباه بعدة نصائح ضـــمنها كـــتابة فدانين لهذا الخادم الوفى والطباخ الماهر. رفض الأب رغم أن جزءاً كبيراً من الأرض ستأخذه الدولة:

عايزيـــن الطباخ بتاعى يبقى عنده فدانين. قبل حادثة التأميم بســـنوات رفض أيضاً المشاركة فى بناء مدرسة ابتدائية فى البلدة. كان صريحاً: لما ولاد الفلاحين يدخلوا المدرسة مين يجمـــع القطـــن. رغم حدة طباع أبيه غير أنه كان أباً طيباً، كـــريماً مـــع أبنائه، لا يزال هذا الحوار البعيد بين أمه وأبيه يتردد فى أذنه.

- يا زينب ولادك ما بيطلبوش فلوس منى ليه؟
- يـــا اخويـــا الخير كتير وبيأخدوا منى ومن أعمامهم وأخوالهم ومش عايزين حاجة.
- أنا أبوهم يعنى لازم يطلبوا فلوس منى عشان أشخط فيهم وأسألهم هيعملوا بها إيه.

فـــى الـــيوم التالى، أثناء وجود الأب فى حقوله ومزارعه أخبرتهم الأم الحنون أن يطلبوا من والدهم فلوس. مسعد تنبأ بهـــذه المبادرة. أما الأخوان فتقبلا الأمر بشكل ساخر. تدخل مســـعد: زيـــادة الخير خيرين. بعد العشاء دخل الأب غرفته الخاصـــة، بها الخزنة والأوراق ودفاتر الأراضى والعقارات. جلـــس منـــتظراً حـــتى سمع طرقات على الباب. دخلت الأم وخلفها الأبناء الثلاثة.

- عايزه إيه يا زينب أنتِ وولادك؟

وبصوت بدا مرتفعاً وجاداً طلبت منه فلوساً للأبناء. نظر فى وجوه الأبناء متصنعاً الغضب: كل يوم فلوس بتعملوا إيه بالفلوس. قال ذلك وأعطاهم ظهره. نظرت الأم إلى الأبناء كى يتكلموا: ربنا يخليك يا بابا آخر مرة. كانوا على وشك الابتسام وهم يقولون ذلك. تقدم الأب من الخزنة، فتحها وكبش عدداً كبيراً من الأوراق مختلفة القيمة وأعطى لكل واحد منهم مبلغاً: آخر مرة تاخدوا فلوس مفهوم. لاحظ مسعد سقوط أوراق مالية على الأرض من بين يدى الأب. يتذكر، وقتها، أن لا الأب ولا الأم ولا الأبناء كلفوا خاطرهم الانحناء لالتقاطها: أيام. تمتم مسعد وهو يترحم على أبيه وأمه وأيامهم السعيدة. سافر الأخ الأصغر إلى أوربا، الثانى تحول إلى السخرية من الحياة والناس ومن نفسه. أما هو فقد هدَّه المرض. يعرف ما يقوله الناس عنه: رجل بلا قلب. وحش، يهتك الأعراض ويقتل أبناءه ويلقى بهم فى الترع والمصارف. هذه الأشياء حتى لو كان فعلها بيده فى الماضى، لم يكن يجرؤ أحد على التفوه بكلمة. هو نفسه لم يكن يتوقف عند أفعاله الخيرة أو الشريرة. أراضيهم وأموالهم وعقاراتهم والداخلون والخارجون والانتخابات وشراء أراض جديدة ورشوة الموظفين والمنافسات والخصومات وشعوره بأنه الابن الأكبر والمسئول مع أبيه

وبعــده، أشياء لم تكن تسمح له بالتوقف عند أشياء معينة داخــل ســور بيتهم. بيتهم كان سداً منيعاً، محاطاً بالأسوار والغــيطان والخفــراء. كان يتخــلص فيه من قيود ضــبط الأعصاب والحسابات والأراضى والمحاصيل حتى هدومه كان يــتحرر منها، وحكاية زوجته ضمن تلك الأشياء المعينة. لم يغتصبها بل تزوجها على سنة الله ورسوله وانجب منها. أين هــى وأيــن أبــناؤه الآن؟ لا، هو ابن وحيد هربت به أثناء الانــتخابات. يتمــنى أن يراه مرة واحدة قبل أن يموت. هل يشــبهه أم يشــبه أمه وهل به شبه من أخوته لأبيه؟ كيف يعيش وهل نجح فى حياته وتزوج وأنجب أبناء؟

أســئلة وأســئلة مــع ذكــريات حزينة. أنقذه من جميع المنغصات خادمه العجوز الذى أحضر له زجاجة خمر وكأساً مــن المرمــر لا يزال يحتفظ به بعد عثوره عليه فى خزنة والده.

* * *

هواء حار لافح. الدكاكين أغلقت. المارة نادرون يسيرون بجانــب الحوائط بخطوات سريعة محتمين بأمتار الظل. قيظ الظهيرة أجبر الناس على المكوث فى البيوت أو النوم تحت ظــل شــجرة. شخص فى الشارع يسير بتؤدة وينظر بنوع غريــب من الراحة لشوارع البلدة الخاوية. لن يرى أحداً فى

الشـــارع يعرفه. لن يتمهل عند الزوايا والمنحنيات ومداخل البـــيوت ليســـلم على شيخ البلد وشيخ الخفر وشيخ الجامع وشـــيخ المنســـر. الشارع خاو والطريق إلى بيتها سهل بلا عقبات. من يتخيل أن تقوم علاقة بينه وبين امرأة تقترب من الخمسين، سوداء، عريضة الأرداف، لها صوت ناعم مغناج، زينت رجليها بخلخالين من الفضة ومعصميها بأساور ذهبية. عــندما يضـــاجعها وتتحرك تحته تشخلل الأساور والخلاخيل فـــتزيده إثارة وجنوناً. انعطف فى حارة ضيقة، منزوية، نقر على أول باب عدة نقرات.

- أهلاً سى حربى.

بيتها صغير، غرفة نوم وصالة تتكدس فيها بضاعتها من ملابس واحتياجات البنات والنساء، تبيعها لنساء وبنات البلدة وتجلب له عدداً لا يحصى من أسرار وحكايات البلدة. لا يوجد عندها سرير. تفضل أن تنام على الأرض. من تجاربه معها فهم أن أى سرير لن يحتمل ثقلها وحركتها وفورانها: أنا قلت أنـــك مش جاى. هى الأخرى مثل أهل البلدة، لا تعرف عنه الكثـــير. أهـــل الـــبلدة يقفـــون عند السلام عليه، يخشونه، يستشيرونه، لا يتوقفون عند فضائح أبنائه؛ لأنه يوزع عليهم البطاطيـــن فـــى الشـــتاء، اللحوم أيام عيد الأضحى، الدقيق والســـكر فـــى عيد الفطر. لا يتأخر عن المساهمة فى بناء

مســجد أو مدرسة. لا يعرفون أنه يخشاهم ويخجل منهم ولا يحب المناسبات التى تضطره للخروج والسلام والكلام. يحب الأماكن التى لا يعرفه فيها أحد، يميل للعلاقات السرية. مئات المرات فكر أن يعيش فى المدينة ويترك خلفه كل شىء. لكن كــيف والأبناء لا يشعرون بالمسئولية. لو غاب شهراً واحداً عن الأرض والبيت سوف تتراكم المشاكل.

اقتربت المرأة منه وسألته عن سبب شروده وهى تخلع عنه حذاءه وتتحسس الشعر الكثيف فى قصبة رجله. لم يجد مبرراً للكلام. رقدت جواره على بطنها. أزاح بيده قميص نومها حتى منتصف ظهرها. امتطى ظهرها واخترق فلقتيها.

* * *

انطلق الأتوبيس بالفوج إلى قرية ذات الصفا، وكما اتفقت مــع طارق وجدته فى المكان والوقت المحددين. ركب معنا وبدأ فى الحديث عبر ميكرفون الأتوبيس عن المكان وتاريخه وأهــم معالمــه. لم أتدخل وتركته يتكلم؛ لتأكدى من صحة معلوماتــه وثقافته وإجادته للغة الإنجليزية التى يتكلم ويقرأ بها.

انزويــت علــى كرسى فى مؤخرة الأتوبيس وتركت أمر الــرحلة لطــارق ورجب. أصابنى الفتور، رغم حبى لعملى وحكاياتــه. بعــد مــرورنا علــى عدة أماكن أعطى طارق

المـيكرفون لرجب وجاء إلىّ: مالك يا صديقى. أخبرته عن حالـة الاضطراب والفتور نتيجة الظروف المقلقة فى الأسرة والعمـل. عرض علىّ أن أضع فى برنامج الرحلة زيارة إلى غـيطهم. قلت له إننا ملتزمون ببرنامج وبضرورة أن يكون الفوج أمام الفندق فى وقت محدد.

لـم يعـترض وطلب منى أن أترك رجب يرجع مع الفوج ونذهـب أنـا وهـو إلى الغيط. وافقت على شرط أن نكتفى بالغيط ولا نذهب إلى البيت مثل المرة السابقة. عندما وصلنا للغـيط كنـت ظمآنـاً. جلست تحت شجرة. سار طارق بين الأحـواض والزرع. عاد وأعطانى قلة ممتلئة بالماء. شربت فى البداية بسرعة ثم شممت رائحة الفلفل الأخضر ممتزجة بالمـاء. أعطيته القلة وسألته عن رائحة الفلفل. أجابنى أنه دائمـاً يضـع القلة بين شجيرات الفلفل؛ لأنه مغرم بالفلفل والشـطة والليمون والكمون وكل أنواع التوابل والبهارات: أنت نسيت. بالطبع نسيت أن طارق كان فى الكلية لا يشاركنا الطعـام إلا إذا كان مترعاً بالشطة والفلفل والليمون والبصل المخلـل. كـان يعـيد على مسامعنا قراءة فقرات من كتب التاريخ التى تتحدث عن استيراد الفراعنة للتوابل والبهارات مـن الـبلاد البعيدة وعن الجنود الرومان الذين كانوا عندما يجـيدون فى تدريباتهم ويرضى عنهم قوادهم كانوا يحظون

بكـــيس ملح وبعض البهارات. وعن الناس فى الزمن القديم الذيـــن كانوا يقيسون درجة الغنى بمقدار ما عند المرء من توابل، وعن الفلفل الذى كان يستخدم ومازال فى علاج بعض الأمـــراض وفى حفظ وتتبيل الطعام، بل أن الفلفل تسبب فى حروب بين الدول، وأن التوابل والاتجار بها وردت فى الكتب المقدســـة وكانت مراكز تجارتها تحتل مكانة مهمة فى عقل وقلـــب أصحاب الممالك القديمة. وصل شغف طارق وغرامه بالبهارات أن قال إن كلمة البَهَار تعنى كل شىء حسن منير. وقتها لم نكن نعبأ كثيراً بما يقول وكنا نأخذ كلامه على سبيل الفكاهـــة، حتى فوجئنا بأخيه يزورنا ويرجونا الضغط عليه، لأنه يريد أن يأخذ حقه من ميراث أبيه ويزرعه: فلفل وشطة وليمون وثوم وبصل وشبت وبقدونس. وذكر نباتات وأسماء غريـــبة علـــى مسامعنا. اخبرنا طارق بزيارة أخيه وسببها. هاج وتعصب على غير عادته. بالكاد وبعد شد وجذب وتهديد مـــن طارق بالرحيل عن بيت الأسرة، اتفقنا معه ومع أخوته أن يعطوه جزءاً من ميراثه فى الأرض يمكنه زراعته كيفما يحـــب. بعد هذا الحل الوسط، عاد إلى طبيعته وإلى دراسته وقـــراءاته: افتكرت ولا لسا. إجابتى كانت رمية بقرن فلفل، تفـــاداه وأشـــار إلى غرفة بناها تحت شجرة توت عتيقة فى ركـــن من الغيط. غرفته الخاصة جداً. يستريح ويفكر ويحلم

ويقـرأ فـيها. لـم أندهـش من كثرة الكتب عن الأعشاب والنـباتات والتوابل والبهارات وكتب الطهو وفلسفة الطعام. لفت نظرى كتاب بالإنجليزية، مجلد تجليداً فاخراً، مكانه فوق مائدة صغيرة ملتصقة بسرير طارق، وهذا يعنى أنه يقرأ فيه أو قـرأه ولأهميته فضل أن يظل فى متناول يده. سألته عنه فقال إنه كتاب لكاتب إنجليزى اسمه تمبلتون، يتناول قوانين الحـياة ويرسـم طرقاً للسعادة عبر تعريفه للكلمات الفارقة والمهمـة مـثل الإيمان والعطاء والحماسة والابتهاج بشكل جديد.

* * *

اللـيل لـيّل فـبدأ رزق غـانم فـى وضع بضاعته من الخضراوات القليلة فى أقفاص ليتركها أمانة عند أقرب بيت للمكان الذى يجلس فيه. تظل حتى صباح اليوم التالى. غطى رأسـه وعنقه بلاسة قديمة وسار ببطء تجاه داره. منذ فترة ومباشرة بعد اللوثة التى أصابت ابنه بسبب بنت حربى علام. لـم يعـد يشعر بطعم للدنيا وبات لا يهتم بجلب الخضراوات الطازجـة ولا يدخـل مـع الزبائن فى مناقشات عن ارتفاع وانخفـاض الأسعار. حاول أن يتكلم مع ابنه، لكن الولد فى دنـيا غـير الدنيا. وضع يده على رأسه. الصداع أصبح لا يفارقـه. سوف يعرج على دكان صابر ويشترى قرص ريفو

وبالمـــرة ســكر وشاى. تذكر أنه رأى باكو شاى فى البيت. ســيكتفى إذن بشـــراء السكر. رجلاه قادتاه بالفعل إلى دكان صـــابر. لم يلمح كثرة الزبائن وصابر أيضاً لم يسمعه عندما طلـــب قـــرص ريفو ونص كيلو سكر. كرر طلبه لصابر، لم يســمعه هــذه المــرة بســبب صوت رزق الخفيض. شعر بالاختـــناق وضـــآلة شأنه عند الناس فصرخ بأعلى صوته: عايـــز نـــص كيلو سكر يا بنى آدم. انتبه صابر إلى وجوده وانزعج من صراخه غير المبرر. كاد أن يؤنبه لولا معرفته محـــنة الـــرجل. بحث عن ورق أو أكياس ليضع له السكر. اكتشـــف نفاد الورق والأكياس: معلهش يا عم رزق مفيش ورق ولا أكياس. جاء رده هادئاً: خلاص يا سيدى حط السكر فى اللاسة. فرد رزق لاسته ووضع صابر فيها السكر. أعطى ظهره لصابر ومشى: الفلوس يا عم رزق. زعق صابر. رجع رزق وبـــيد واحدة بحث فى جيوبه عن الفلوس. غيظ صابر مـــن البطء والعطلة جعله يستعجله: خلصنى يا عم رزق فيه زبايـــن. عند سماعه هذه الجملة لم يتحمل ورمى السكر من اللاســـة فى عرض الدكان معلنا عدم احتياجه: خد سكرك أنا مش عايز سكر.

* * *

قبل أن يتحرك الأتوبيس بأحدث فوج وصلنا، أخبرنى رجب بسؤال المدير عنى ولابد أن يرانى فوراً. المقابلة معه كانت عبارة عن جملة وحيدة: ارجع على المكتب بعد الجولة عشان عايزك ضرورى.

بعد المقابلة ركبت الأتوبيس مع الفوج وابتعدنا صوب وادى السنزلة، حيث شذرات من مدينة بائدة، يقال إن ملكها كان يعشق الجمال؛ فأمر بزراعة الأشجار والأزهار والرياحين وبتشييد البيوت والقصور. اختفت تلك المدينة وظل هذا الوادى الأخضر المحاط بتلال من الطين والحجارة. فى الأعالى كنيسة قديمة وأطلال أسوار وأحجار. انتشر السائحون فى جوانب الوادى وشرعوا بالتقاط الصور وتوجيه الأسئلة المعتادة. اقترب منى أحد سكان الوادى ولفت نظرى إلى بيته الممتلئ بالأوانى الفخارية والسلال والمشغولات اليدوية. عرض علىّ زيارة بيته مع الفوج كى يشتروا بضاعته. تركت هذه المهمة لرجب وتجولت فى الوادى. جلست بجانب حوض نعناع. تنشقت رائحته وأغمضت عينىّ وسرحت بعيداً، محاولاً نسيان الطين الذى أغوص فيه يوماً بعد آخر. اخبرتنى قارئة الكف أن مشاكلى ستحل فور السفر إلى مكان بعيد وجميل. كأنها قرأت أفكارى. الذى لم تقرأه إننى أحب هذا المكان بكل ما فيه. رغبتى فى

السفر نابعة أساساً من الحب. فأنا أخشى أن يأتى يوم تضيق فـيه الحلقة على رقبتى وألعن المكان وناسه ويتلاشى الحب بداخلـى. مـاذا سـأفعل فى تلك الحالة؟ هل سأكتفى بإدانة الجميع عداى؟ أم سوف أركل كل شىء وأتجرد من ملابسى وألتصـق بحـائط فـى شـارع عمومـى، أشـاهد المارة ويشـاهدوننى بـلا مـبالاة؟ أم سـأفعل مثل الرجل النحيف الطويـل، الذى كنت أراه فى الصباح الباكر وأنا فى طريقى للكلية. كان يسير منحنياً، لابساً ملابس نسائية من الكستور المـربعات دائمـاً بـيده موقد كيروسين؟ قطع علىّ أفكارى وشـطحاتى صـوت رجـب وهو يقترب منى ويحثنى على النهوض والرجوع بالفوج إلى الفندق. يبدو أنه أحس بحالتى المزاجـية السـيئة. حاول إخراجى منها بأن حكى لى حكاية جـده لأمه الذى كان يملك عدة أفدنة بالقرب من هذا المكان وباعهـا فى يوم واحد من أجل شىء بسيط جداً، كيلو شعير لحصـانه المحـبوب: معقـول الكلام ده. كنت غير مصدق: معقـول قـوى الأرض كانت كتير وناس زمان كانوا طيبين وكمـان جدى لأمى أحسن من جدى لأبويا اللى باع عشرين فدانـاً عشـان مره شرموطة. لم أتمالك نفسى من الضحك والتعلـيق علـى حكاياتـه: جدودك كانوا بيحبوا الركوب يا رجب.

صعدنا إلى الأتوبيس أومأت للسائق أن يتحرك. بعد نصف ساعة كنا أمام الفندق. عند مروري بقاعة الاستقبال أعطاني موظف الحسابات فاتورة للمدير. في طريقي للمدير توقعت أن يحدثني عن القصور في العمل أو قلة الأفواج أو تسريح عدد من العمال وتخفيض النفقات، لكن لم أتوقع أن يغلق المكتب. أعطاني أجور العاملين لهذا الشهر كي أوزعها عليهم وأخبرهم بغلق المكتب: ويمكن الظروف تتحسن ونفتح تاني. عبارة لا لزوم لها، أية ظروف هذه، ومتى تحسنت ظروفنا أصلاً؟. خرجت من عنده وأنا في حالة دوار. قبل عبوري الباب الرئيسي للمبنى سمعت الخفير يتكلم مع أحد أقاربه عن الرياح الشديدة التي أسقطت ثمار المحاصيل ولم يعد في الأشجار ما يجمع: خراب بيوت. رد عليه قريبه مع إضافته أخبار جديدة، القرى السياحية تلقي مخلفاتها في البحيرة فتزيد ملوحة الماء، والأسماك تموت.

إغلاق المكتب، قلة المحاصيل، موت الأسماك، زيادة الديون، زهق الناس، تعقد الحياة، ترددي بين السفر والبقاء، أشياء عندما تجتمع في وقت واحد، تدعو لليأس والإحباط أو الاضطراب على أسوأ الفروض. بعد ابتعادي عن المبنى، تذكرت طارق وكتابه الذي يرسم طرقاً للسعادة وابتسمت بيني وبين نفسي وأنا أسمع صوته يتردد في أذني، عن ضرورة

الحماســة عــندما نصل لطرق مسدودة. عندما اعترضت أو سخرت من كتابه، قال بهدوء وإيمان من وصلوا إلى اليقين، وضرورة أيضاً الإيمان حتى فى لحظات الشك، والابتهاج فى اللحظة التى تشعر فيها بأن آمالك قد خبت.

* * *

ضــجيج مرح فى الشارع، فى كل خطوة ومنذ خرجت من المبــنى وكلمات طارق التى حفظها من كتابه تتملكنى. أشعر بــالعقد والمشــاكل والأشياء التى أعاقتنى وعرقلتنى تنحل بداخلى وتتلاشى بلا سبب واضح؟، كأننى أبدأ من جديد وكأن الدنيا بدأت فى مغازلة عشاقها.

الله االه.. مد االدد.

نظــرت خلفــى إلــى صاحب الصيحة، فرأيته ومَنْ حوله يــنظرون تجــاه امــرأة تمر فى الشارع ماشية كأن جسمها يضــحك. لها بهجة وبريق، وجه أبيض ممتلئ باسم، عينان واســعتان عسليتان، ردفاها الرجراجان يرتفعان وينخفضان مع كل خطوة.

وحد وووه.. لا إله إلا هوو...

صــيحة الحبور والنشوة هذه لها ما يبررها. كأنى أعرف هــذه المرأة، كأنى أعرفها. تجاوزت الناس وعبرت الشارع.

لمحـــتها تبطىء عند بائع الجرائد. اقتربت منها. بهاء الوجه نفسه وإشراقته، الجسم امتلأ قليلاً، لكنها هى حياة سعيد.

- حياة سعيد؟

فـــى تلك اللحظة كانت تعطى نقوداً للبائع بعد أن اشترت كتاباً وبدأت فى التحرك.

- آه أنا.

ردتْ على سؤالى وهى تبتسم وتتأملنى وتسخر من الشعر الأبيض الذى انتشر فى رأسى.

- أنتِ عرفتينى بسرعة ازاى؟

جـــاءنى الـــرد مع انفراجة الشفتين وبروز خفيف للسان الأحمر المثير: ماشى كأنك تايه ولمحتك جاى ورايا. ابتسمتُ ولـــم أرد: تمشـــى معايـــا شويه. قالت ذلك ونحن نسير معاً بـــالفعل. توقفـــت أمامنا سيارة سرفيس، ركبنا فى الكرسى الأخـــير. كأننى أحلم وكأن السنوات لم تمر ولحظات الملذات يمكن أن تعود.

النســـاء الجميلات قليلات، الجميلات خفيفات الدم والروح نـــادرات، النادرات جداً النساء اللائى يبعثن البهجة والفرح والحبور والانبساط عند رؤيتهن.

- لسا سرحان وتايه؟

- وأنتِ لسا بتسمعى أغانى أمريكانى؟

كادت أن تضع سماعات جهاز التسجيل الصغير فى آذانها، لم يكن يفارقها كالعادة.

- مش أى أمريكانى، ألفيس بريسلى وجيم موريسون ولوى أرمسترونج.
- خلاص عرفنا إنك سميعه.

أدارت وجهها للناحية الأخرى. خشيتُ أن تغضب وتنزل من السيارة ونفترق وأفقد هذه اللقية للأبد. انهمرت على ذاكرتى اللقطات والذكريات معها فى الكلية وحديثى الأخير مع طارق عن طبيعة علاقتى بها. توقف سيلان شريط الذكريات، توقف عند شىء محدد، وجه حياة، ليس وجهها تحديداً بل شفتيها، ليس شفتيها على وجه الخصوص بل الشفة السفلى، المكتنزة قليلاً والتى تتدلى رخوة قليلاً وتدعو إلى القبض عليها وعضها.

- رحت فين؟
- أنتِ زعلتى؟
- أبداً، أنزل بقى علشان عطلت!

سائق السيارة يعتذر بسبب العطل الخارج عن إرادته. كنا فى منطقة الصيفية خلف الشوارع الرئيسية وبالقرب من الغيطان والسواقى وبحر يوسف. تركنا الناس والسيارة وسرنا على جسر مصنوع من جذوع النخيل، يربط بين

الشـــارع وطـــريق الغيطان، الجسر على ترعة متفرعة من البحر الكبير. عبرنا الجسر الذى سلمنا لمنحدر عميق تظلله أشـــجار الجزوريـــنا والنخـــيل. الأرض حولـــنا منخفضات ومـــرتفعات وســـهول تـــبرز فجأة وممرات محاطة بالبوص والحلفا. قلت لها إننا يمكن أن نجلس قليلاً ثم تذهب إلى حيث تشـــاء. توغلـــنا أكثر فى الغيطان، صرنا بالقرب من البحر الكبـــير والســـواقى، لم نعد نرى أحداً ومحاطين بالخضرة. جلســـنا. أخرجـــت الكتاب الذى اشترته. طوق الحمامة لابن حزم. الكتاب مزين برسوم أزهار وطيور وفتاة كالتفاح.

بصـــوتها المشـــحون بالـــنعومة قرأت سطوراً من كلمة الغلاف: كلام جميل مش كده؟ أومأت لها برأسى، الذى دارت بـــه أســـئلة عـــن زواجهـــا وطلاقها وحياتها بعد أن تركت الجامعة. بحاستها السادسة أو التاسعة قرأت أفكارى.

- انسى
- إيه؟
- حـــاول تنســـى شوية، امبارح وبكرة وقبل ما نتقابل خلينا مع بعض الساعة دى.

قـــبل أن أتكلـــم ضـــغطت زر التسجيل فجاء صوت لوى أرمسترونج بأغنيته المشهورة ما أروع هذا العالم:

أرى شجراً أخضر، ووروداً حمراء أيضاً

أراها تزهر لى ولك،
وأقول فى سرى: ما أروع هذا العالم،
أرى سماوات زرقاء وغيوماً بيضاء،
نهاراً متوهجاً مباركاً، وليلاً داكناً مقدساً،
وأقول فى سرى: ما أروع هذا العالم.

لمــاذا لا أعيش هذه اللحظة وأنسى قليلاً همومى وهموم الناس وتاريخ الزمن القديم ومعاصر النبيذ والقوافل المحملة بالكروم والبحيرة والطيور المهاجرة وحكايات وأحداث المكان وكــتل الصخور التى وقفت فى طريق أحلامى، ولا سيما أن رمــوز الحب والحياة تنبض وتتحرك من حولى. أسراب أبو قردان تجتمع جوارنا وتتحرك وتدور جذلى، عابرة السواقى إلــى مكــان آخر. رائحة الماء ممتزجة بجذور النباتات مع الحشــرات الصغيرة، خنافس، نمل، ضفادع، مع أزيز النحل وهــو يــدور على الزهور مع النباتات المتعفنة وبقايا جثث الطيور، ورائحة الجديان والخراف والبقر التى ينقلها الهواء مــن الحقول، مع رائحة الأرض التى بللها الماء وندى الليل وأنفــاس الأنــثى الحــارة، هذه الأشياء أشاعت شذى ثقيلاً ممتعاً.

- حياة أنا كنت غلطان.

لم تجب بسرعة. تمددت بكسل وتراخ واضعة كفيها تحت ذقـنها: المهم بقينا مع بعض. همست بصوت رَقَّ حتى صار كخرير الماء ونعومة السحاب الذى يبدو أنه دنا منا وبدأ فى مداعـبة جسـدينا. فى البعيد صياد يرمى شبكته فى البحر وطـيور ضاحكة تمر فوقنا فى طريقها للبحيرة، حيث مأواها لبعض الوقت، هرباً من بلاد الصقيع والجليد. فكرتُ فى رمى شـبكتى أنا الآخر على هذا الجسد بالغ الحسن. كانت أسبق مـنى: قـرب مـنى وبطل تردد. بدأت رحلتى المقدسة من خصرها حتى أردافها. كم أنت جميلة ولذيذة يا أمنا الأرض. وضعت رأسى بين ظهرها وردفيها، ووضعت يد على إحدى روابيها، أما اليد الثانية فجعلتُ أناملها تسافر فى شعرها. فى هذه اللحظة تذكرت العراف الضرير الذى نشرت له الصحف الألمانـية صوراً وهو يتحسس المؤخرة العارية لفتاة تعطيه ظهـرها، وهو يهمس لها بما تخبئه الأيام. الآن أعرف مدى لذتـك أيهـا الضـرير الذكى. يبدو أن أصابعها هى الأخرى تحركت وفعلت شيئاً؛ لأن صوت "لوى أرمسترونج" عاد من جديد.

ألوان قوس قزح، الباهرة الجمال فى السماء،
ترتسم أيضاً على وجوه المارة.
أرى أصدقاء يتصافحون، ويقولون: كيف حالكم؟

وهم فى الحقيقة يقولون: أحبكم،
أسمع أطفالاً يبكون، أراهم يكبرون،
سيتعلمون أكثر بكثير مما سأعرفه أبداً.
وأقول فى سرى: ما أروع هذا العالم،
وأقول فى سرى: ما أروع هذا العالم. آه، نعم!

هـل يمكن؟ هل أستطيع أن أسقط عشرين أو ثلاثين سنة مـن الانكسارات والكبوات والأيام المترعة بالكوابيس وفشل الأب وخيبته وديونه وغلق المكتب وجحود الأهل وأنانية الأصدقاء وحسدهم وغيرتهم والظروف غير المواتية؟

- سرحت تانى؟

صوتها المشحون بالحرارة أعادنى للمكان البهيج، الوافر الألـوان وجسدها الـذى يفوح منه العطر. رأيتُ الأعشاب الخضراء القصيرة تتماوج تحت أنفاسها المتلاحقة. قلت لها، سأحكى لـك عـن جدودنا القدامى الرائعين. عَلقتْ بصوت مكتوم: خلينا مع الحلوين أحسن.

دائمـاً استحضـرهم وتـاريخهم أكثر من مرة، صورهم ومشاهدهم تتداعى إلى ذاكرتى فى أوقات كثيرة، ربما لكسر حدة هذا الواقع أو لاستشراف حياة أجمل، كانت، ويمكن أن تكـون. أراهـم الآن فى مشاهد الاحتفال بعيد ديونيسيوس، كانـت الجماهـير تقلهـا مراكب صغيرة من الضفة الأخرى

للبحيرة وتتجه صوب المعبد فى منطقة قارون، كانوا ينشدون الأغــانى التى تعبر عن البشر والسرور اللذين يفيضان على المحتفليــن بأعــياد هذا الإله. أهل الريف يخرجون فى هذه المناســبة ويقيمون المهرجانات ويملأون الطرقات، يسرفون فى الأكل والشرب، ويفقدون وعيهم ويخرجون عن وقارهم. يغــنون، يرقصــون، يتنافســون فــى ابتكار النكات البذيئة والشــتائم اللاذعــة، وكــانوا يحملون صورة مكبرة لعضو الإخصاب.

- آه، ده حلو قوى!

لــم تحــدد مــا هو الحلو قوى، المكان، الحكاية، نهاية الحكاية، أو التحامنا معاً.

خيط كثيف من الدخان يخرج من مكان ما، تموج الدخان الــبطىء الصــاعد إلــى السماء من بين الأشجار والخضرة يوحى إلينا بالهدوء والسلام ويذكرنا أيضا بالوقت الذى مر. كــان يجــب أن ننهض قبل المغيب. سوت ملابسها ونفضت بعــض الأعشاب العالقة بها ولملمت أشياءها. فعلت مثلها. عيــناها الضــحاكتان أشــعرتانى ببداية الطريق. دفعتها فى ظهــرها فقفــزت وجرت عدة أمتار وهى تصيح فى سعادة. صــعدنا عــدة تلال صغيرة حتى أصبحنا فى منتصف السهل الوسيع.

صدر للكاتب:

- مِسك الليل. قصص. ميريت، القاهرة ٢٠٠٢.
- الروائيون المصريون الجدد. نقد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣.

إشارات:

قصيدة لى باى، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد – كتاب الماضى الحى لإيفار ليسنر، هيئة الكتاب ١٩٨١ –وأغنية (ما أروع هذا العالم) ترجمة مجلة الآداب ضمن ملف من إعداد سماح إدريس وكيرستن شايد، ١١/١٢/ ٢٠٠١. وبخصوص كتاب (تمبلتون) فقد جاء ذكره فى مجلة ديوجين العدد ١٨٥/ ١٢٩ ترجمة د. عثمان مصطفى عثمان.